FROM THE AUTHOR OF "STORY OF SOMEONE"

QUALIA

كوالیا

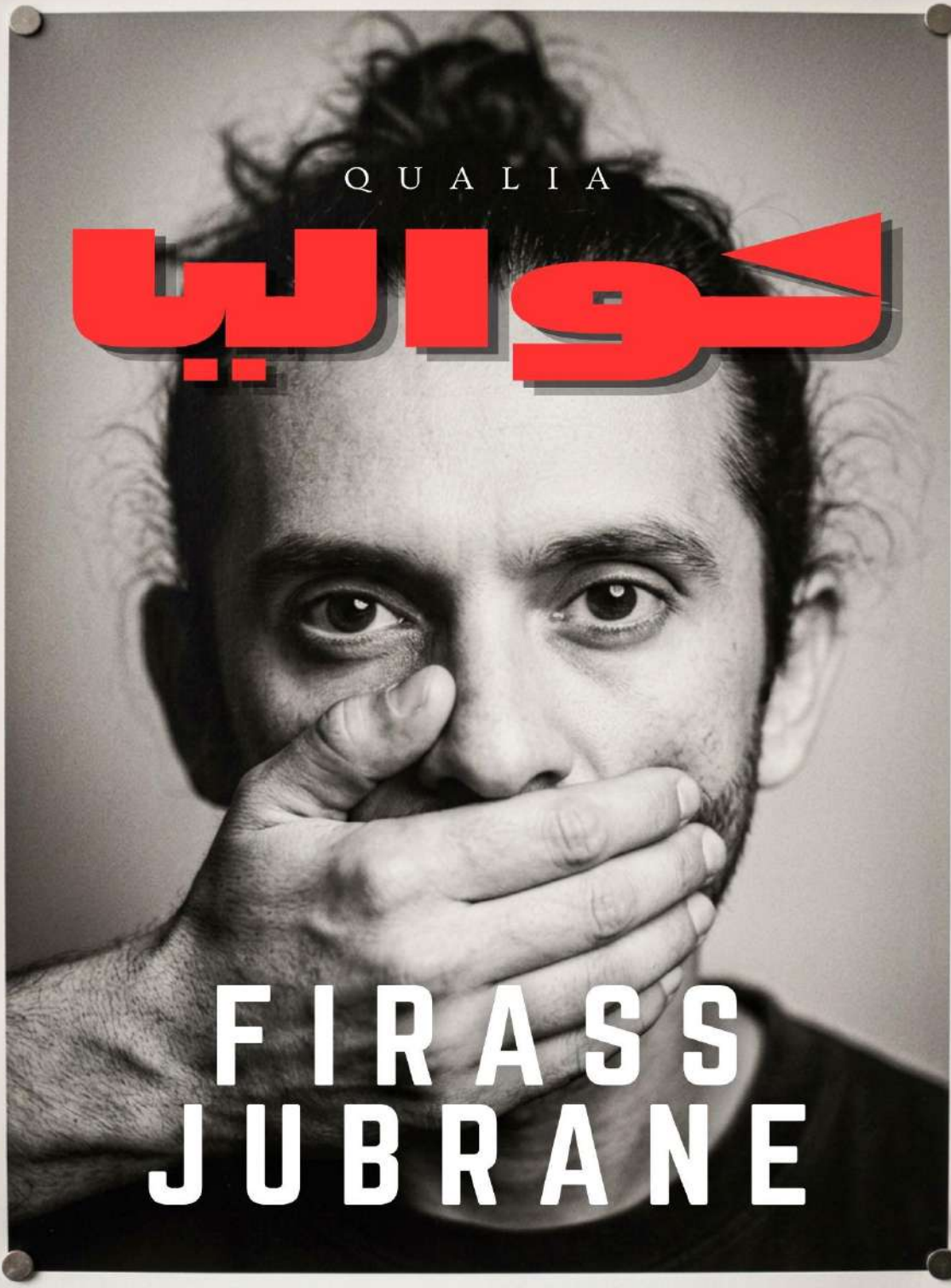

FIRASS JUBRANE

LEAVE BEFORE YOU BECOME PART OF IT

كوابا

Leave before you become part of it

FIRASS JUBRANE

2026

إلى الذين غادروا أماكن كثيرة...
وبقيت بعض الأماكن تسكنهم.

إلى كل من خرج من مدينة...
ولم يخرج منها تمامًا.

إلى الغرباء...
حتى في أوطانهم.

إلى الذين اتخذوا من المدن الإلكترونية...

أوطانًا.

إلى كل من شعر يومًا...
أن العالم تغيّر قليلًا،
ثم لم يجد دليلًا على ذلك.

إلى الذين يعرفون...
أن بعض التجارب لا يمكن روايتها.

إلى من سيغلق هذا الكتاب...
ثم يظل يفكر فيه.

إلى جيوان...
الذي خرج من المدينة...
وتركها في داخلي.

إلى كل من ظنّ يومًا...
أنه غادر.

Juba

"If you happened to arrive here by chance...

don't stay too long."

مقدمة

لم أكتب "كواليا" لطرح إجابات جاهزة، بل لأن بعض الأسئلة الوجودية تظل عصيّة على الإصغاء ما لم تلبس رداء الحكاية.

لا أعلم إن كانت هذه الصفحات تشرح جغرافيا مدينة، أم تفكك اغتراب إنسان، أم أنها تتقصى تلك الفجوة الإدراكية التي تفصل بين حقيقة ما نراه... والوهم الذي نصرّ على اعتناقه.

كل ما أوقنه أنني، كحال "جيوان"، عبرت يوماً فضاءات خرجت منها محملًا بوعي جديد؛ شيء يتعالى على قوالب اللغة ويستعصي على التسمية .ربما لهذا التبس عليّ الأمر، فاخترت لها عنوان "كواليا".

ثمة اختبارات إنسانية لا تُترجم بالكلمات، لأن معرفتها مشروطة بمعايشتها ذاتياً. يمكننا أن نصف ماهية النار ألف مرة، لكننا لن ننقل حرارتها الواخزة لمن لم يلامس لهيبها. ويمكننا أن نؤرخ لمدينة بأكملها، لكن المدينة الحقيقية تظل حبيسة الإدراك الذاتي لمن سار في أزقتها وحده.

لذا، لن أمارس عليك سطوة الشرح والتمهيد قبل أن تبدأ.

اعبر عتبة هذه الصفحات كشريك لـ"جيوان" في تيهه.

ولا تمنح يقينك الكامل لما تقرؤه...

ولا لما سيستقر في وعيك بعد أن تنتهي.

فـراس جبـــــران

11-07-2026

ثمة أماكن لا تدخلها بقدميك، بل بطريقة رؤيتك للعالم.

وثمة مدن لا تحتاج إلى أسوار، لأنها تعرف أن الإنسان يحمل سجنه معه.

إذا وصلت يومًا إلى مدينة تبدو أكثر هدوءًا مما ينبغي، فلا تطمئن كثيرًا.

فالسكينة، أحيانًا، ليست علامة على السلام... بل على أن أحدًا توقف منذ زمن عن طرح الأسئلة.

الكاتب

كوالبا

جيوان

"Every journey begins long before the first step."

كان جيوان يسافر منذ سنوات، لا لأنه يحب السفر، بل لأنه فقد القدرة على البقاء في مكان واحد. كل مدينة يقيم فيها كانت تبدأ بوعدٍ صغير، وتنتهي بصمتٍ أطول من اللازم. لم يكن يحمل بيتًا يحنّ إليه، ولا أحدًا ينتظره عند عودته. كان يحمل حقيبة جلدية قديمة، وكتابًا لم يُكمله منذ ثلاث سنوات، ورسائل كثيرة لم يجرؤ يومًا على تمزيقها.

لم يكن هاربًا من رجل، ولا من محكمة، ولا من دَينٍ أثقل كاهله. كان هاربًا من نفسه، وهذا النوع من الهرب لا تنجح فيه المسافات. كلما ابتعد عن مدينة، شعر أن شيئًا منها قد سبقه إلى المدينة التالية.

كان قد جرّب أن يبدأ حياة جديدة أكثر من مرّة. تعلّم مهنة، ثم تركها. أحب امرأة حتى ظن أن العالم انتهى عند عينيها، ثم اكتشف أن الحب، حين ينتهي، لا يأخذ معه الشخص الذي رحل، بل يأخذ معه النسخة التي كانها حين أحَبّ. منذ ذلك اليوم، صار يشعر أنه يعيش بجسد رجل، وذاكرة رجل آخر. لهذا اعتاد السفر.

كان يقول لنفسه إن الطرق الطويلة تمنح الإنسان فرصة لإعادة ترتيب أفكاره، لكنه أدرك بعد سنوات أن الأفكار لا تُرتَّب في الطرق، بل تتبدل أماكنها فقط، فتبدو مختلفة للحظات، ثم تعود إلى الفوضى نفسها.

كان يحب محطات القطارات أكثر من المدن. ففي المحطة، لا يسألك أحد من أنت، ولا لماذا جئت، ولا إلى أين ستذهب. الجميع هناك غرباء، والغريب لا يحتاج إلى أن يبرر وجوده.

في إحدى الأمسيات، جلس على مقعد معدني في محطة نائية، ينتظر قطارًا تأخر كعادته. كانت المحطة شبه خالية، والريح تعبث بأوراق الصحف القديمة على الأرض. إلى جواره جلس رجل خمسيني، أنيق على نحوٍ لا يلفت النظر، يحمل عصًا سوداء وقبعة رمادية، ويضع إلى جانبه حقيبة صغيرة، بدت كأنها تعرف وجهته أكثر مما يعرفها هو.

لم يتبادلا كلمة في البداية. كان كلٌّ منهما ينظر إلى السكة الحديدية الممتدة أمامه، كأنها تعرف إلى أين تذهب القطارات... ولا تعرف إلى أين يذهب ركابها.

كان الرجل المسن يجلس وقد أسند كلتا يديه فوق مقبض عصاه، بينما استقرت ذقنه فوقهما في هدوء. لم يكن يراقب المارة، ولا اللوحة التي تعلن مواعيد الرحلات، بل كان يحدق في القضبان الحديدية بنظرة طويلة، كأن بينه وبينها حديثًا قديمًا لم ينتهِ بعد.

أما جيوان، فكان يبدّل ثقل جسده من قدم إلى أخرى كل بضع لحظات. أخرج علبة سجائره، ثم أعادها إلى جيبه من غير أن يفتحها. لم يكن يعرف إن كان ينتظر القطار... أم ينتظر أن ينتهي انتظاره لشيء آخر.

مرّت دقائق لم يعرف كم بلغت.

عندها فقط قال الرجل، من غير أن يحوّل نظره عن السكة:

"الغريب لا يتعبه السفر"...

توقفت الجملة في الهواء. رفع الرجل إبهامه ببطء، وأخذ يمسح به رأس عصاه المصقول، كأنه يبحث عن الكلمة التالية بين خطوط الخشب.

..."يتعبه أن كل مدينة تعده بأنها لن تشبه سابقتها".

التفت إليه جيوان لأول مرّة.

ظل يدرسه لحظة، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة خفيفة لم تكتمل.

"يبدو أنك سافرت كثيرًا".

أفلت الرجل من أنفه ضحكة قصيرة بالكاد سُمعت، ثم حرّك كتفيه حركة صغيرة، كأن السؤال أثقل من أن يستحق جوابًا طويلاً.

"بقدر ما يكفي لأعرف أن المدن تتشابه أكثر مما يظن الناس".

عاد الصمت.

دخل قطار إلى المحطة بصفير حاد، فاهتز زجاج المظلة القديمة. رفع الرجل رأسه نحوه، ثم أعاده إلى مكانه قبل أن تتوقف العربات تمامًا، كأنه عرف القطار من صوته.

تدفق الركاب، وتعالت النداءات، ثم انطلق القطار من جديد، وسحب خلفه الضجيج كله، حتى عادت المحطة إلى السكون الذي كانت عليه.

أخرج جيوان سيجارة هذه المرة، ووضعها بين شفتيه. تحسس جيوبه بحثًا عن الولاعة، وحين وجدها، كان قد أشعلها بالفعل.

"هل زرت المدينة؟"

تجمّد اللهب لحظة بين أصابعه.

رفع رأسه ببطء.

"أي مدينة؟"

ابتسم الرجل ابتسامة استعصت على الفهم، لم تكن ابتسامة رجل يتذكر شيئًا، بل ابتسامة رجل انتبه متأخرًا إلى أنه نسي أن يذكر أهم تفصيل في حكايته.

ظل ينظر إلى جيوان لحظة أطول مما ينبغي، ثم قال بهدوء:

"ستعرفها إذا رأيتها".

انعقد حاجبا جيوان قليلاً. كاد يسأل سؤالاً آخر، لكنه حين رأى الرجل يعيد بصره إلى السكة، شعر أن أي سؤال إضافي سيبدو كأنه إزعاج لرجل لا ينتظر جوابًا من أحد.

وبعد صمت قصير، حرّك الرجل العصا بين كفيه، وقال بصوت خافت، كأنه يوصي نفسه أكثر مما يوصيه:

"إذا مررت بها يومًا... فلا تُطل الإقامة فيها".

وصل القطار التالي.

نهض الرجل ببطء، واستقام واقفًا قبل أن يلتقط حقيبته الجلدية الصغيرة. مسح بكفه على معطفه، كمن يتأكد أنه لم ينس شيئًا، ثم طرق الأرض بعصاه مرة واحدة، ومضى نحو الباب المفتوح.

لم يلتفت خلفه.

ولم يرفع يده مودعًا.

ابتلعه المسافرون في ثوانٍ، حتى بدا لجيوان، وهو يراقب العربة الأخيرة تبتعد، أن الرجل لم يكن ينتظر القطار منذ البداية...

بل كان ينتظر شخصًا واحدًا، يقول له تلك الجملة، ثم يختفي.

بقي جيوان جالسًا بعد رحيل القطار.

لم يفكر في اللحاق بالرجل.

ولم يحاول أن يسأل أحدًا عنه.

لكنه، ولسبب لم يستطع تفسيره، ظل يتذكر تلك العبارة كلما مرّ بمدينة جديدة. كانت تعود إليه أحيانًا وهو يشرب قهوته في الصباح، أو وهو يعبر شارعًا مزدحمًا، أو قبل أن ينام في فندق لا يعرف اسمه. شيئًا فشيئًا، بدأ يشعر أن الرجل لم يكن يحذّره من مدينة، بل من شيء آخر، شيء لا اسم له، فاتخذ شكل مدينة.

مرت أشهر.

وفي رحلة لم يكن يقصد منها سوى اختصار الطريق إلى مدينة أخرى، لمح عند مفترق ترابي لافتة قديمة، نخرها الزمن، وكُتب عليها بخط باهت يكاد يختفي:

"إلى المدينة... ثلاثة كيلومترات".

لم يعرف لماذا توقّف.

ولم يعرف لماذا شعر، لأول مرة منذ سنوات، أن الطريق هو الذي اختاره... لا العكس.

البوابة

"The most dangerous doors are the ones you close behind yourself."

لم يكن تحت العبارة اسم، كأن المدينة لم تكن بحاجة إلى اسم، أو كأنها فقدته منذ زمن. تردد قليلاً. ثم غيّر اتجاهه. كان الطريق ضيقًا، تحرسه من الجانبين أشجار أسفندان شاهقة، وقد اشتعلت أوراقها بألوان القرمزي والنحاسي والذهبي، حتى خُيّل إليه أن الضوء نفسه كان يعبرها على استحياء، وأن السماء لم تكن تُرى إلا على شكل شرائط زرقاء تتسلل بين الأغصان. وكلما تقدم، خفتت الأصوات من حوله، حتى اختفى كل شيء، ولم يبق سوى وقع خطواته وصوت الريح وهي تمر بين هذه الأشجار.

بعد نصف ساعة من المشي، ظهرت الأسوار. لم تكن عالية، ولا منيعة، ولا تشبه أسوار المدن التي تخشى الغزاة. كانت أقرب إلى حدود رمزية، كأنها رُفعت لتخبر الداخل أنه انتقل إلى مكان آخر، لا لتمنعه من الدخول.

عند البوابة، لم يجد حارسًا. وجد كرسيًا عتيقًا فارغًا، وبجانبه دفترًا مفتوحًا وقلمًا مربوطًا بخيط.

على الصفحة الأخيرة كُتبت أسماء كثيرة؛ بعضها بخط واضح، وبعضها بخط مرتجف، وبعضها لم يكن سوى حروف توقفت قبل أن تكتمل.

تردّد جيوان. ظلّ واقفًا لحظات، ثم كتب اسمه الكامل، وأعاد القلم إلى مكانه.

ولسببٍ لم يفهمه، شعر أنه ارتكب فعلاً لا يستطيع التراجع عنه.

كان قد رأى في أسفاره كثيرًا من المكاتب البيروقراطية، وحواجز التفتيش، والأختام التي لا تنتهي، وكان يعرف أن الأنظمة الشمولية التقليدية تستمد شرعيتها البصرية من إشهار القمع البيروقراطي المباشر؛ تُجبرك لتمنحك، دون قصد، مساحة ضيقة لتأسيس لاهوتٍ للتمرّد السرّي؛ ذلك اليقين الخافت بأنك، في أعماقك، لم توافق أبدًا.

أما هنا، فلم يكن ثمّة حارس، ولا ختم، ولا أمر بالدخول، ولا حتى لافتة تطلب منه أن يكتب اسمه.

لم يكن يخيفه غياب الحارس، بل راحةُ هذا الغياب.

وخطر له، للمرّة الأولى، أن بعض الأماكن لا تحتاج إلى استهلاك طاقتها في ترويض الرعايا؛ إذ يكفيها هندسة بنية سيكولوجية تجعلك تتبنى شروط تدجينك ذاتياً، لتلج المحبس بإرادتك، وتغلق خلفك الباب بيدك.

راوده إحساس عابر بأن الدفتر لم يكن سجلاً للزائرين بقدر ما كان تنازلاً سيكولوجيًا لا يراه أحد. فما إن كتب اسمه، حتى صار بينه وبين المدينة اتفاقٌ صامت، لم يقرأ بنوده، ولم يوقّعها بالحبر وحده.

دخل.

بدت المدينة، للوهلة الأولى، كأنها خرجت من ذاكرة قديمة لا من خريطة. كانت البيوت الحجرية المنخفضة تتراص بهدوء على جانبي الطريق، وقد غطّت جدرانها طبقات من الزمن منحتها لونًا لا يشبه الأبيض ولا الرمادي، بل شيئًا بينهما، كأن السنوات تركت عليها ظلّها ثم مضت. كانت الشرفات الصغيرة تتدلى منها أوعية الزهور، لا على هيئة زينة متكلفة، بل كما لو أنها نبتت هناك من تلقاء نفسها. ومن النوافذ المفتوحة كانت تتسرب أصوات أوانٍ تُرتَّب، وضحكات بعيدة، ورائحة خبز خرج توًا من الفرن، امتزجت بعبق الخشب الرطب حتى بدا الهواء نفسه صالحًا للسكن.

في الأزقة الضيقة كان الأطفال يركضون خلف كرة قماشية، يضحكون بالطريقة التي يضحك بها من لم يتعلم بعد أن يخاف، بينما كانت النساء يتبادلن الأحاديث بين نافذة وأخرى، من غير أن يرفعن أصواتهن، كأن المدينة كلها تعرف أن السكينة لا تحتاج إلى كثير من الكلام. حتى الأشجار، وقد امتدت أغصانها فوق الطريق، كانت تلقي ظلالها برفق، فلا يشعر العابر أنه يسير في شارع، بل في ممرٍ اعتاد أن يستقبل الخطى منذ زمن بعيد.

وعند زاوية أحد البيوت، حيث استلقى ظل شجرة أسفندان عتيقة على الرصيف، لمح كلبًا أشقر، متّسخ الفراء قليلاً، وقد تمدّد في البرودة التي صنعتها الظلال. رفع رأسه عندما مرّ جيوان، ولم ينبح، ولم يحرّك ذيله، بل اكتفى بأن يتابعه بعينيه في هدوء، حتى إذا ابتعد بضع خطوات، أعاد رأسه إلى الأرض وأغلق عينيه كأن شيئًا لم يكن.

لم يلتفت جيوان إليه ثانية.

توقف جيوان عند مدخل الساحة، وأفسح حقيبته قليلاً عن كتفه بعدما بدأ الحزام يضغط على عظمة الترقوة. ترك عينيه تجولان ببطء، لا بحثًا عن فندق، بل عن ذلك الشيء الذي جعل الرجل في محطة القطار يوصيه ألاّ يطيل الإقامة.

لم يجد شيئًا.

كان كل شيء طبيعي،

شعر بشيء من الحرج وهو يتذكر تحذير الرجل المسن.

بل لام نفسه بصمت.

كيف استطاع أن يمنح جملة عابرة كل هذا الوزن؟

كانت المدينة، في تلك اللحظة، تبدو أكثر الأماكن تصالحًا مع نفسها. حتى الهدوء لم يكن صمتًا، بل نوعًا من الطمأنينة التي لا تطلب منك شيئًا.

ومع ذلك...

راوده خاطر خاطف، سرعان ما حاول التخلص منه.

ليس غريبًا أن يخيفنا المكان المضطرب...

الغريب هو المكان الذي لا يترك فيك سببًا واحدًا للقلق، ومع ذلك لا تستطيع أن تطمئن إليه تمامًا.

قطع عليه الفكرة رجلٌ أعرج، كان يسير بخطوات قصيرة متأنية، يحمل سلّة من القش امتلأت ببرتقال لامع. كانت إحدى الثمار تتأرجح كلما تحركت السلّة، فيعيدها الرجل إلى مكانها بإصبعه من غير أن ينظر إليها، كأنه حفظ موضعها من كثرة ما فعل ذلك.

اقترب منه جيوان.

"أتعرف مكانًا أبيت فيه الليلة؟ فندق أو نزل، أي شيء "

توقف الرجل في مكانه، وعدّل قبضة يده على مقبض السلّة، ثم أشرق وجهه بسرعة بدت أكبر من السؤال نفسه.

"طبعًا، هناك نزل قريب... سِر حتى تصل إلى النافورة، ثم انعطف يسارًا".

قالها بثقة، حتى إنه أشار بيده في الهواء قبل أن يكمل سيره، كأن الطريق لا يقبل تأويلاً آخر.

شكره جيوان ومضى.

كانت النافورة في منتصف ساحة صغيرة، يتساقط ماؤها في حوض دائري تعلو حافته آثار طحالب قديمة. دار حولها مرّة واحدة، ثم انعطف يسارًا كما قيل له.

لم يبتعد سوى خطوات.

ثم تباطأ.

وأخيرًا توقف.

أمامَه كانت مقبرة قديمة.

أحاط بها سور حجري منخفض، تعلوه بقع داكنة خلّفها المطر عبر سنوات طويلة. مالت بعض الشواهد قليلاً، حتى خُيّل إليه أنها تتكئ على بعضها بعضًا. وبين القبور انتصبت أشجار عالية، مستقيمة على نحو يكاد يكون عسكريًا، تحجب جزءًا من السماء وتلقي ظلاً باردًا على الأرض، رغم أن الشمس لم تكن قد غابت بعد.

لم يكن المكان مهملاً.

بل كان مرتبًا أكثر مما ينبغي.

حتى الأوراق اليابسة كانت قليلة.

وقف جيوان لحظة.

ثم أدار رأسه ببطء، كأن النزل ربما اختبأ في الجهة الأخرى.

لم يكن هناك شيء.

استدار وعاد.

كان الرجل ما يزال يسير بالسرعة نفسها، ولم يبتعد كثيرًا. لحق به جيوان، وحاول أن يجعل صوته خفيفًا حتى لا يبدو كأنه يصحح له خطأ.

"أظن أنني أخطأت الطريق".

توقف الرجل.

لم يجب مباشرة.

أدار رأسه نحو المقبرة، وظل يحدق فيها لحظة، ثم انتقل ببصره إلى النافورة، وكأنه يرى المكان للمرة الأولى.

انفرجت شفتاه قليلاً.

ثم صفق بكفه على جبينه ، لم تكن حركته تمثيلاً بقدر ما كانت موجهة إلى نفسه.

"آه"...

سكت ثانية، وهز رأسه بأسف.

"لا... النزل يمين النافورة، لا يسارها".

وبينما كان يتكلم، رفع يده اليمنى ليشير إلى الطريق الصحيح، لكنه أشار أولاً إلى الجهة الخطأ، ثم سحب يده سريعًا وغير اتجاهها، كأن جسده سبق ذاكرته بلحظة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة مرتبكة.

ابتسامة رجل يخجل من خطأ صغير، لكنه لا يعرف كيف وقع فيه.

"سامحني".

هز جيوان رأسه مبتسمًا ابتسامة قصيرة، وشكره من جديد.

وحين ابتعد عنه، التفت مرة واحدة إلى المقبرة، ثم إلى الرجل الذي واصل سيره وكأن شيئًا لم يحدث.

قال في نفسه:

"يبدو أنه لم يعد يتذكر الطرقات جيدًا".

كانت ملاحظة عابرة، ولم يكن يعلم أنها ستكون أول جملة في سلسلة طويلة من التبريرات التي سيضطر إلى اختراعها، كلما رأى شيئًا لا يجد له تفسيرًا.

وصل جيوان إلى النزل.

لم يكن المبنى كبيرًا، لكنه بدا أقدم من البيوت المجاورة، كأن المدينة لم تُبقِه قائمًا لأنها تحتاج إليه، بل لأنها اعتادت وجوده، كما يعتاد الناس قطعة أثاث ورثوها عن آبائهم ولم يعودوا يعرفون لماذا لم يتخلّصوا منها.

دفع الباب، فأصدر صريرًا قصيرًا، ثم انفتح ببطء، كأنه احتاج إلى لحظة ليتذكر هذه الحركة.

استقبله هواء بارد يحمل رائحة خشب عتيق، وشمع مذاب، وأغطية الصوف التي احتفظ ببرد شتاءات لا تحصى. كانت الردهة ضيقة، تتوسطها منضدة استقبال من خشب داكن، استدارت حوافها من كثرة ما استندت إليها أيدي النزلاء على مر السنين. وعلى الجدران عُلِّقت صور قديمة غطّاها غبار رقيق، حتى بدت المناظر التي فيها أقرب إلى ذكريات منها إلى أماكن، وقد بهتت ألوانها حتى صار الزمن هو الرسام الوحيد فيها.

وقبل أن يتقدم، استوقفت نظره لوحة خشبية صغيرة معلّقة فوق باب الممر المؤدّي إلى الغرف. لم تكن مزخرفة، ولم تحمل اسم النزل، بل سطرًا واحدًا كُتب بخط قديم:

"الحاكم لا يخطئ".

تسمّرت نظراته فوق النقش لبرهة، واهناً أمام التباس معناها؛ فلم يدرِ أكانت حكمةً تُشرعن الإذعان، أم إملاءً سلطوياً صارماً، أم مجرد عبارة يتيمة علّقها عابرٌ ذات ضجر ثم سقطت من ذاكرة المكان .تخلّص من ثقل السؤال بنفضة خفيفة من كتفيه، وتابع تسلّله في دهاليز النزل.

خلف المنضدة جلست امرأة مسنّة ممتلئة الجسد، حتى بدا الكرسي الخشبي تحتها أصغر مما ينبغي. كانت ترتدي ثوبًا رماديًا فضفاضًا، وتلف كتفيها بشال صوفي سميك، مع أن الجو لم يكن باردًا. بدا الشال وكأنه لا يدفئها، بل يطمئنها.

كان وجهها مستديرًا، تغطيه طبقة خفيفة من مسحوق التجميل لم تستطع أن تخفي التجاعيد الدقيقة حول العينين، بل جعلتها أكثر وضوحًا، كأنها رسمتها بدل أن تمحوها. أما شعرها، فقد بدا وكأنه دخل في خلاف طويل مع الصبغة؛ فقد تمددت الجذور البيضاء حتى احتلت نصف الرأس، بينما بقي النصف الآخر محتفظًا بلون كستنائي باهت، يفصل بين اللونين خط واضح، لا يخجل من إعلان مرور الوقت.

وحين حركت يدها فوق المنضدة، لمح جيوان أظافرها المطلية بلون خمري قديم. كان الطلاء متشققًا عند الأطراف، وبعضه اختفى تمامًا، حتى بدا كأنه بقي شاهدًا على عناية توقفت في منتصفها، ولم يعد أحد إلى إكمالها.

كانت تحدق في دفتر مفتوح أمامها، وتحرك شفتيها بصمت، كأنها تقرأ سطرًا طويلاً. ثم مدّت إصبعها إلى الصفحة، تتبع الكلمات ببطء، قبل أن ترفع رأسها فجأة، كأنها انتبهت إلى وجوده متأخرة.

أسبلت جفنيها ببطء، كأنها تنفض عنهما غبار مشهد مكرر، ثم سألت بصوت خفيض تشوبه بحّة السنين المتراكمة:

"تريد غرفة؟"

اكتفى بإيماءة صامتة، فدفعت بالدفتر المهترئ باتجاهه كمن يقدّم صك عبور.

كانت الصفحة شبه فارغة، لكن إصبعها ظل يبحث بين السطور لحظة، حتى استقر أخيرًا على مكان خالٍ.

"اكتب إسمك الكامل هنا".

تناول القلم، ودوّن اسمه، ثم أعاد الدفتر إليها.

أغلقت الغلاف بكلتا يديها، وربتت عليه ربّتة خفيفة، كما لو أنها انتهت من أمر يحتاج إلى تثبيت، ثم وضعته جانبًا.

بعدها فتحت درج المنضدة.

أخرجت حلقة حديدية ثقيلة تتدلى منها مفاتيح نحاسية كثيرة. أخذت تقلبها واحدًا واحدًا، ترفع كل مفتاح إلى مستوى عينيها، ثم تعيده، وهي تتمتم بأرقام لم يستطع جيوان أن يميز منها شيئًا.

طال الأمر أكثر مما توقع.

وأخيرًا، فصلت خمسة مفاتيح، ودفعتها نحوه فوق الخشب.

رنّت المفاتيح رنّة قصيرة.

قالت:

"غرفتك... رقم أحد عشر".

ظل جيوان ينظر إلى المفاتيح لحظة، ثم رفع واحدة منها بين إصبعيه.

أدارها أمام الضوء.

ثم أعادها إلى مكانها.

"ولماذا كل هذه سيدتي؟"

رفعت المرأة كتفًا واحدًا، بينما كانت تسوي بأطراف أصابعها حلقة المفاتيح الباقية، كأن السؤال مر عليها مرات كثيرة حتى فقد غرابته.

"جرّبها".

انتظر أن تكمل.

لكنها لم تفعل.

ظل ينظر إليها، فرفعت رأسها مرة أخرى، وأضافت بالنبرة نفسها، وهي تنفخ ذرة غبار عن سطح المنضدة:

"الذي يفتح الباب... أبقه معك".

ثم أشارت إلى المفاتيح الأخرى دون أن تنظر إليها.

"وأعد إليّ البقية".

أعاد بصره إلى المفاتيح.

كانت متشابهة إلى حد أربكه. لا أرقام، ولا علامات، ولا خدش يميّز واحدًا عن الآخر.

رفع رأسه ببطء.

"ألا تعرفين أيها مفتاح الغرفة؟"

سكنت المرأة لحظة.

توقفت يدها فوق الدرج المفتوح، وبقيت أصابعها معلقة في الهواء، كأنها كانت ستلتقط شيئًا ثم نسيت ما هو.

نظرت إليه طويلاً.

ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة، لم يعرف إن كانت اعتذارًا أم استسلامًا.

قالت:

"كنت أعرف".

وأغلقت الدرج برفق.

لم تضف كلمة أخرى.

شعر جيوان أن أي سؤال جديد لن يمنحه جوابًا، بل سيزيد عدد الأسئلة.

جمع المفاتيح في كفه، وصعد الدرج الخشبي.

وكانت كل درجة تصدر أنينًا مختلفًا، كأن السلم نفسه يحاول أن يتذكر عدد الذين صعدوه... ثم يعجز في كل مرة.

بدا الممر ممتداً في رتابة موحشة، تصطف على جنباته أبواب متماثلة تفتقر إلى أي هوية، ولا يكسر جمودها سوى أرقام نحاسية متآكلة عُلقت فوق الأقفال كعلامات منسية.

عند الغرفة رقم أحد عشر، توقفت خطاه. أدخل المفتاح الأول فقاومه القفل، وتلاه الثاني ثم الثالث بحذر ودون طائل. أما الرابع، فقد انزلق بسلاسة كأنه جزء من البنية نفسها، ليستجيب معه القفل بيسر غير متوقع؛ انفتح الباب ببطء مطلق، نافثاً صوتاً خفيضاً، كأن الغرفة أطلقت زفرة ارتياحٍ طال حبسها.

أطال النظر إلى المفاتيح الأربعة المتبقية في كفّه، ثم أطبق أصابعه عليها بدافع مبهم غاب عنه تفسيره. ولأول مرة منذ أن وطئت قدماه هذه الأرض الغريبة، راوده شعور واغل بأن الخطأ هنا ليس عارضاً ولا هفوة عابرة... بل هو المنهج المعتمد، والآلية الرتيبة لتدبير الوجود وتسيير الأشياء.

دفع الباب وولج إلى الداخل.

بدت الغرفة صغيرة، غير أنها مرتبة بعناية توحي بصرامة تكاد تكون مقصودة. سرير حديدي مفرد، يُجلله لحافٌ أبيض طرزت حوافه بخيوط زرقاء شاحبة. وعلى مقربة منه طاولة مستديرة يستقر فوقها مصباح زيتي عتيق، وخزانة ضيقة تنضح برائحة الخشب الخام.

وفي الزاوية، ركن كرسّي هزاز تطبّعت ذراعاه الصقيلتان بلمسات الأيدي المتعاقبة التي ركنت إليه؛ وكأن سطحه الخشبي قد انحنَى تدريجياً ليطوع نفسه مع انحناءات القلق البشري المتشابه، غادياً قالباً جاهزاً لاستقبال أي جسد غريب آخر يحلّ بهذا المكان.

دنا من النافذة وأزاح مغاليقها.

أطلّت على الساحة الرئيسية للمدينة. كانت النافورة تتوسطها كما لو أنها قلبها النابض، بينما كانت أصوات الأطفال تتداخل مع وقع خطوات المارة، وتصل إليه رائحة الخبز الساخن نفسها التي استقبلته عند دخوله. لم يكن في المشهد ما يبعث على القلق، بل كان كل شيء يوحي براحة يصعب تفسيرها... راحة كاملة إلى درجة جعلته يتذكر، للمرة الأولى منذ وصوله، الرجل الخمسيني في محطة القطار، ويتساءل بصمت إن كان قد أخطأ المدينة... أم أن الرجل هو الذي أخطأ في تحذيره.

معصم يفقد وزنه

" The perfect routine leaves no room for questions. "

عندما أغلق جيوان باب الغرفة رقم أحد عشر خلفه، شعر وكأن الجدران الحجرية الضيقة تزحف نحوه ببطء، لتقتسم معه أنفاسه. وضع حقيبته الجلدية القديمة فوق الكنبة القريبة، ثم اتجه إلى الطاولة الصغيرة الملاصقة للسرير. كان فوقها إبريق معدني صغير، وإلى جانبه موقد كحولي لا يتجاوز حجم الكف، وقد علاهما غبار خفيف، وبجانب ذلك كوب خزفي أبيض تشققت حافته، وعلبة معدنية تضم بضع أوراق شاي جافة.

أفرغ قليلاً من الماء في الإبريق، ثم أشعل الموقد بعود ثقاب. ارتجف اللهب الأزرق لحظة قبل أن يستقر تحت المعدن، وراح الإبريق يرسل أزيزًا خافتًا، أخذ يعلو شيئًا فشيئًا مع تصاعد الحرارة. وقف يراقب الفقاعات الصغيرة وهي ترتفع من القاع حتى بدأت المياه ترتجف استعدادًا للغليان. كان ذلك الصوت المنتظم هو الحياة الوحيدة التي يسمعها في الغرفة.

صب الماء فوق أوراق الشاي، فتسللت رائحة عشبية دافئة إلى أنفه. كانت رائحة مألوفة على نحو ضاعف شعوره بالغربة، وكأن الأشياء التي يعرفها جيدًا جاءت لتخبره أنها لا تنتمي إلى هذا المكان.

حمل الكوب، وغادر الغرفة. كان الصمت هناك أثقل من أن يُشرب معه الشاي.

هبط الدرج الخشبي الذي أخذ يئن تحت خطواته كما لو أنه يشكو من كل من مرّ فوقه منذ سنوات. وحين بلغ البهو، وجد الضوء الشحيح المنبعث من مصباح زيتي يوزع الظلال على الجدران الحجرية، فتبدو الزوايا أعمق مما هي عليه.

خلف منضدة الاستقبال، كانت صاحبة النزل ما تزال في مكانها. أمسكت مجلة فنية قديمة، تقلب صفحاتها ببطء شديد، بينما تمضغ علكة تحدث فرقعة قصيرة كل بضع ثوانٍ، كإيقاع "تمبو" موسيقي بطيء ورتيب يكسر سكون البهو. لفت نظره أنها لا تقرأ شيئًا؛ كانت عيناها تنتقلان بين الصور وحدها، ثم تعودان إلى الصورة نفسها بعد لحظات، كأن الصفحات لا تحمل كلمات أصلاً.

في زاوية البهو، جلس رجل في خريف العمر، يرتدي قميصًا مزركشًا بألوان ربيعية زاهية لا تليق بعمره. كان يمسك سيجارة بين أصابعه، لكن الرماد

طال حتى أوشك أن يسقط، من غير أن ينتبه إليه. بدا كمن اعتاد الجلوس أكثر مما اعتاد العيش.

تردد جيوان قليلاً، ثم اقترب.

-"مساء الخير".

رفع الرجل رأسه ببطء، وأخذت عيناه وقتًا قبل أن تستقرا على وجه جيوان.

ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

-"مساء النور... وجه جديد".

أومأ جيوان.

- "وصلت اليوم".

- "واضح".

ابتسم جيوان، جلس قبالته، ووضع كوب الشاي على الطاولة الصغيرة بينهما. بقي الرجل صامتًا لحظات، ثم قال وهو ينفض رماد سيجارته في منفضة امتلأت حتى حافتها:

-"وكم تنوي البقاء؟"

تذكر جيوان عبارة الرجل الخمسيني في محطة القطار.

"إذا مررت بها يومًا... فلا تُطل الإقامة فيها" . قال جيوان:

-"لا أعرف. ربما ليلة... وربما أكثر".

ابتسم الرجل ابتسامة يصعب الجزم إن كانت سخرية أم شفقة.

- "الناس الذين يقولون ربما... هم أكثر الناس بقاءً".

ساد صمت قصير.

ارتشف جيوان من كوبه، ثم قال:

-"المدينة هادئة جدًا".

ابتسم الرجل بسخرية بسيطة تحاكي قدر أهل المدينة، وقال متمتماً بنبرة غريبة وبالكاد مسموعة:

- "هدوء؟.. أجل.. أجل.. هدوء".

أخذ نفسًا طويلاً من سيجارته، ثم نظر إلى يد جيوان فجأة.

- "لا ترتدي خاتمًا".

خفض جيوان بصره إلى يده.

-"لا".

-"إذن... لست متزوجًا".

-"لا".

اتسعت عينا الرجل قليلاً، واستقام في جلسته حتى أصدر المقعد تحت جسده صريرًا خافتًا.

-"ولماذا؟"

ابتسم جيوان بحرج.

-"لم يحدث".

هز الرجل رأسه ببطء، كمن يسمع خبرًا مؤسفًا.

-"خطأ".

رفع جيوان حاجبيه.

-"خطأ؟"

-"طبعًا".

سحب نفسًا آخر، ثم أشار إليه بطرف السيجارة.

- "الرجل إذا بقي وحده أكثر من اللازم... بدأ يفكر".

توقف لحظة.

ثم قال بهدوء:

-"والتفكير... مهنة خطيرة".

لم يعرف جيوان إن كان يمزح أم يتحدث بجدية.

تابع الرجل:

- "تتزوج".

ورفع إصبعًا.

- "ثم يأتي الأول".

ثم ثانيًا.

-"ثم الثاني".

ثم أخذ يعد على أصابعه واحدة تلو الأخرى.

- "المدرسة".

-"الأقساط".

- "الطبيب".

- "العمل".

- "الفواتير".

- "البيت".

- "الإصلاحات".

ثم ابتسم أخيرًا.

-"وحين تنتهي من كل ذلك... تكون قد وصلت إلى آخر حياتك، من غير أن تجد وقتًا كافيًا لتسأل نفسك سؤالاً واحدًا... هذه سنّة الحياة"

سكت قليلاً.

ثم قال، كأنه يختم حكمة قديمة:

-"الرجل الذي لا يتزوج... يبقى لديه وقت".

نظر إليه جيوان.

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة.

- "والوقت... أصل كل المصائب".

في تلك اللحظة، دوّت فرقعة علكة من خلفهما.

اقتربت صاحبة النزل بخطوات متثاقلة، ووقفت إلى جوارهما واضعة إحدى يديها على خاصرتها.

-"لا تستمع إليه".

أشارت إلى الرجل بإبهامها.

- "هذا يتحدث كأنه اخترع الزواج".

رفع الرجل رأسه إليها بضيق مصطنع.

- "وأنتِ... ماذا تعرفين عنه؟"

ابتسمت ابتسامة ساخرة.

- "أعرف ما يكفي حتى لا أقع فيه".

ردّ بابتسامة ساخرة:

-"تهاجمين الزواج لأنك تحلمين به، لا تنكري أنك تتمنين أن تشمّي رائحة رجل في سريرك".

ثم التفتت إلى جيوان.

-"لا تتزوج".

رمقها الرجل بنظرة مستنكرة.

- "وهل تريدينه أن يبقى وحده؟"

أطلقت ضحكة قصيرة.

- "الوحدة أرحم".

ثم نظرت إلى الرجل مباشرة.

-"على الأقل... لا تستيقظ كل صباح إلى جوار شخص نسي منذ سنوات لماذا اختارك".

تحرك فك الرجل ببطء، لكنه لم يجد جوابًا.

أما هي، فأكملت، وهي تفرقع العلكة مرة أخرى:

- "الناس يظنون أن الزواج يمنع الوحدة".

ابتسمت.

-"الحقيقة أنه يجعلها تجلس معك على الطاولة".

ساد الصمت.

ظل الرجل يحدق في السيجارة بين أصابعه، وقد طال رمادها من جديد حتى سقط أخيرًا على سرواله، فنفضه بلا اكتراث.

رفع بصره إلى جيوان وقال بهدوء:

- "مع ذلك"...

توقف.

ثم ابتسم ابتسامة شاحبة.

-"لو عاد بي العمر... لتزوجت في السن نفسها".

نظرت إليه المرأة بدهشة.

-"بعد كل ما قلته؟"

هز كتفيه.

-"ليس لأنني كنت محقًا"...

وسكت لحظة.

..."بل لأن الجميع فعلوا ذلك".

لم يجد أحد ما يقوله بعد تلك الجملة.

حمل جيوان كوبه، وشكرهما بابتسامة صغيرة، ثم صعد الدرج ببطء، بينما عاد الرجل إلى سيجارته، وعادت المرأة إلى مجلتها، تقلب الصفحة نفسها للمرة الثالثة، من غير أن تقرأ منها حرفًا واحدًا.

على تلك الدرجات الخشبية المظلمة، لم يكن جيوان يجرّ قدميه فحسب، بل كان يجرّ خيبته؛ كأنّ كلّ خطوة نحو الأعلى هي صعودٌ شاقّ في جدارية الحنين .لقد كان الحديث عن الزواج في البهو أشبه بمِبضَع يشرط غشاء الذاكرة، ليوُقظ في غيابة روحه اسماً طالما تلطّى خلف غبار السفر ونأى بنفسه عن لمسه :

سلمى...

أخذ يسأل نفسه مع كلّ درجة تطأها قدماه وتئنّ تحت ثقله: بعد أن نفضتْ رداءها ورحلت، هل سيجد امرأة أخرى تختصر المسافة الشاسعة لحزنه عليها؟ أم أنّ نساء الأرض بعد غيابها لسن سوى ظلال باهتة لامرأة واحدة؟ كان يرتعب من فكرة أن تعبر امرأة جديدة لتكون مجرد منديل مطرّز يمسح به ندوب الفقد وعتمة الفراق، فذلك تزييف لا تطيقه نزاهة مشاعره. كيف يملك المرء أن ينفض من كفيه حبّاً باغت روحه كالسيل من حيث لا يدري، ثم تبخر فجأة من حيث لا يستطيع اللحاق بآخره؟ وحتى لو غازل النسيان وتظاهر بالتعافي، أيّ امرأة ستكفي غروره العاطفي بعد أن شيدت سلمى للعشق سقفاً شاهقاً تعجز أيدي النساء عن ملامسته أو تطويع هيبته؟

لقد تركته معلقاً في برزخ الهجير؛ تائهاً في منتصف المسافة؛ لا هو قادر على التحليق لاستعادتها، ولا هو يملك الشجاعة ليهبط بقلبه مجدداً إلى تراب الأرض ليعيش حباً عادياً كباقي البشر.

دخل غرفته، وأغلق الباب بالمفتاح الذي احتاج إلى لحظة حتى يميزه من بين المفاتيح الخمسة المتشابهة .وضع الكوب على الطاولة، فوقع بصره على ساعته ذات السوار الجلدي الأسود، حيث تركها قبل أن ينزل إلى البهو .

التقطها، وأدارها نحو ضوء المصباح.

كانت العقارب متوقفة.

ظل يحدق فيها طويلاً، ثم هزها برفق، وقربها من أذنه.

لم يسمع شيئًا.

أعاد المحاولة.

ثم ثالثة.

الصمت نفسه.

وضع الساعة جانباً فوق سطح الطاولة العتيق .وبحركة لا إرادية، رفع يده اليمنى وأخذ يفرك معصمه الأيسر ببطء، حيث اعتاد دائماً أن يشعر بوزن الوقت وبحركته المنتظمة ضد جلده .

تنهد بعمق، ونظر نحو النافذة التي ينسكب منها سواد الليل على ساحة المدينة الصامتة .شعر في تلك اللحظة أن عقارب الساعات ليست الشيء الوحيد الذي يتوقف في هذه المدينة، وأن الوقت هنا... يبدو أنه لا يهم أحداً، ولا يملك أي سلطة على الإطلاق.

لبّيك يا حاكم المدينة

"People rarely notice the moment a mask becomes a face."

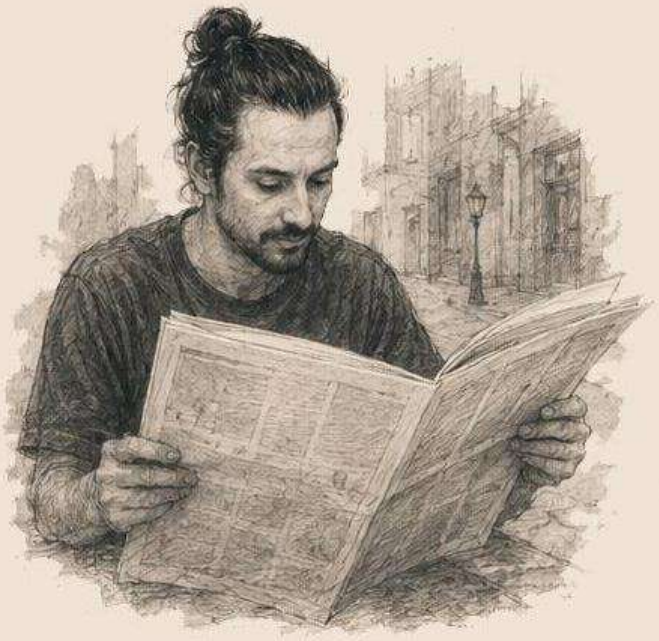

شعر بخفّة غريبة ورغبة دافئة في العيش في صباح اليوم التالي. كان ينحشر في حنجرته ألف لحنٍ عاطفيّ قديم ينتظر دوره في الغناء؛ ألحانٌ استيقظت معه من رُقادها إثر حنين البارحة، أخذ يترنم بها واحداً تلو الآخر وهو يهبط الدرج الخشبي العتيق.

وطئت قدماه عتبة النزل الخارجية وهو يدندن بصوت خافت في الشارع الصامت، ويوزّع نظراته على الشوارع حاملًا في ذهنه رغبة بسيطة؛ أن يتمشى في أزقة المدينة قبل أن يكمل طريقه. لم يكن قد قرر بعد إن كان سيغادر ذلك المساء أو يمنح المكان ليلة أخرى، لكنه شعر بأن هذه المدينة تستحق بضع ساعات إضافية؛ لا لأن ملامحها جميلة، بل لأنها كانت تنكش في صدره فضولًا غامضاً لم يستطع تفسيره، كأن صمتها المحيط به هو الفراغ المثالي الذي يحتاجه ليعيد ترتيب أصواته الداخلية، وكأنها مسرح صامت ينتظر رجع صوته.

كانت المدينة تستيقظ ببطء، كأنها لا تثق كثيرًا بالصباح. كان الخباز أول من فتح بابه، فاندفعت من الفرن رائحة خبز دافئة اختلطت ببخار العجين، وسرت في الشارع كما تسري ذكرى قديمة في رأس رجل وحيد. وعلى الطرف المقابل، خرج الحلاق يحمل منشفة بيضاء، نفضها في الهواء مرة واحدة، ثم علّقها على كتفه بحركة بدت وكأنه يكررها منذ سنوات طويلة حتى فقدت علاقتها بالعادة وصارت تشبه الطقس.

أما بائع الصحف، فقد وصل قبل الجميع. جلس خلف طاولته الخشبية الصغيرة، وأخذ يرتب الجرائد بعناية أثارت انتباه جيوان. لم يكن يصفها في رزم كيفما اتفق، بل كان يسوّي حوافها بإصبعيه بعد كل نسخة، ثم يربّت عليها برفق، كأن الورق كائن حي يخشى أن يؤذيه. وحين انتهى، ظل ينظر إلى الرزمة لحظات، يتأكد أن الصفحات متساوية تمامًا، ثم بدأ يناول المارة نسخهم واحدة تلو الأخرى، من غير أن يرفع رأسه.

اقترب جيوان واشترى نسخة.

كانت الجريدة رقيقة، لا تتجاوز ثماني صفحات، حتى خُيّل إليه أنها لا تحمل من العالم إلا ما يكفي ليوم واحد من النسيان.

بدأ يقرأ.

الصفحة الأولى تتحدث عن أزمة في مدينة بعيدة، والثانية عن ارتفاع أسعار القمح، والثالثة عن مباراة لكرة القدم، ثم أخبار اقتصادية، وتصريحات لمسؤولين لم يسمع بأسمائهم من قبل، وإعلانات عن بضائع لا يحتاجها أحد. كل شيء كان حاضرًا بين دفتيها، إلا المدينة التي كان يقف في قلبها.

توقف قليلاً.

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يفكر أن الصحيفة، على ما يبدو، تعرف العالم كله... إلا المكان الذي تُطبع فيه. هناك صحف لا تكذب، لكنها تتقن فنًا أقدم من الكذب... فن اختيار ما يستحق أن يُقال، فإن ذروة البروباغندا لا تكمن في صناعة حدث يُكتب في الصفحة الأولى، بل في ممارسة إقصاء منهجي وتغييب قسري للحقائق، حتى تصبح أخطر الأخبار هي تلك التي لا تجد مكاناً في أي صفحة.

قلب الصفحة الأخيرة.

في زاوية صغيرة، لا تكاد العين تنتبه إليها، وجد خبرًا مقتضبًا يقول:

"افتُتح أمس الجسر الجديد الذي يربط الضفة الشرقية بالمدينة".

رفع رأسه تلقائيًا.

جال ببصره في الأفق.

لم يرَ نهرًا.

ولا جسرًا.

ولا حتى طريقًا يوحي بأن جسرًا مرّ من هنا يومًا.

عاد إلى بائع الصحف، وفتح الجريدة أمامه.

قال بهدوء:

"عفوًا... أين هذا الجسر؟"

رفع الرجل رأسه ببطء، ونظر إلى الخبر، ثم إلى وجه جيوان، ثم عاد بعينيه إلى الورقة. بقي صامتًا لحظات، كأنه يحاول أن يقرر أيهما يستحق التصديق؛ ما يراه أمامه، أم ما عاشه طوال عمره.

قرأ الخبر مرة أخرى بصوت خافت لا يكاد يُسمع.

ثم طوى الجريدة بعناية، وأعادها إلى الرزمة، وسحب نسخة أخرى ووضعها فوقها، كأنه أراد أن يخفي ذلك الخبر بين بقية الصفحات.

عندها فقط قال، بنبرة واثقة خالية من أي انفعال:

"أي جسر؟... لا أعرف".

نظر إليه جيوان طويلاً، لكنه لم يجد في ملامحه أثرًا للسخرية، ولا محاولة للتهرب، ولا حتى ارتباك رجل ضُبط في كذبة. كان وجهه هادئًا على نحو يبعث القلق، كأنه قال الحقيقة الوحيدة التي يعرفها.

واصل البائع ترتيب الجرائد، وأخذ يسوّي حوافها من جديد، كما لو أن شيئًا لم يحدث.

وقف جيوان لحظة وهو يتأمل الرزمة.

ترك جيوان نسخته التي اشتراها من البائع الغريب، ومضى نحو السوق، وقد صار يشعر أن المدينة لا تخفي أسرارها، بل تخفي إحساس الناس بأن هناك سرًا أصلاً.

توقف أمام بائع توابل وأشار له إلى كيس صغير.

"بكم هذا الزعفران؟"

نظر البائع إلى الكيس وأخذ يتأمله كأنه يراه لأول مرة، ثم قال بثقة مصحّحًا:

"هذا فلفل".

ابتسم جيوان.

"لكنه زعفران".

في تلك اللحظة تغيّر وجه البائع. لم تكن نظرة رجل اكتشف خطأه، بل نظرة رجل سمع كلمة لم يكن ينبغي أن تُقال.

التفت يمينًا.

ثم يسارًا.

واقترب خطوة حتى كاد يلامس كتف جيوان وقال بصوت خافت، يكاد لا يُسمع:

"خذ ما شئت يا سيدي"...

ثم ازداد صوته انخفاضًا وتابع:

..."لكن لا تسمِّ الأشياء بصوت مرتفع".

شعر جيوان ببرودة مفاجئة تسري في ظهره، نظر حوله وتفحّص المكان.

لم يكن أحد ينظر إليهما، لكن البائع بقي واقفًا، وعيناه تدوران في السوق، كأن الخوف لا يحتاج إلى شاهد.

ابتعد جيوان من دون أن يأخذ شيئًا، ولم يعرف لماذا أصبح يمشي أسرع. كلما تقدم في السوق، ازداد شعوره بأن الهواء أثقل مما ينبغي.

لم يكن هناك ما يهدد، ومع ذلك، كان يشعر كأن المدينة كلها تحبس أنفاسها.

وصل جيوان إلى الساحة الرئيسية بعد أن دار في أزقة ضيقة انتهت فجأة إلى فسحة واسعة، كأن المدينة، بعد كل ذلك الانكماش، احتاجت إلى أن تتنفس. كانت نافورة حجرية تتوسط الساحة، يدور حولها المارة ببطء من غير أن يلتفت إليها أحد، كما لو أنها جزء من الطريق لا من المشهد.

غير أن عين جيوان لم تستقر على النافورة.

على بعد خطوات منها، كان ينتصب تمثال حجري قديم، وقد غطت أطرافه طبقة رقيقة من الطحالب، حتى بدا كأنه لم يُنحت من الحجر، بل خرج منه ببطء على مدى سنوات طويلة. لم يكن الرجل الذي يصوره التمثال يحمل سيفًا، ولا كتابًا، ولا تاجًا، بل كان يرفع إصبعه إلى أعلى.

وقف جيوان يتأمله.

لم يعرف إن كان يشير إلى السماء...

أم كان يطالب أحدًا بالصمت...

أم أن الحركة نفسها فقدت معناها منذ زمن، ولم يبق منها إلا الإصبع.

اقترب أكثر.

كانت القاعدة الحجرية قد نالت منها السنون، ومسحت الأمطار معظم ما كُتب عليها. رأى آثار حروف متناثرة، لا تكاد تُقرأ، كأن أحدًا حاول محوها ثم تعب قبل أن ينتهي. ولم يبق واضحًا إلا سطر واحد، حُفر بعمق أكبر من غيره:

"لبيك يا حاكم المدينة".

وتحته تاريخ يعود إلى خمسين عامًا.

ظل يقرأ العبارة أكثر من مرة.

راوده حدس معرفي غريب بأن هذا النقش لا يثبّت هيبة الطاغية كشخص، بل يؤسس لثقافة الإذعان الجماعي؛ كأن البيعة لا تُقدّم لرجل عابر، بل لبنية السلطة التي يرحل أصحابها وتظل وصايتهم ممتدة.

لطالما ظن أن الحجر يحفظ الأسماء أكثر مما يحفظ الوجوه، لكن هذا الحجر بدا وكأنه احتفظ بالولاء... ونسي صاحبه.

وبينما كان غارقًا في تأمله، مرّت على الطرف الآخر من الساحة امرأة شابة تحمل سلّة صغيرة من القش، تتدلّى منها باقة بقدونس وربطة خبز ملفوفة بقماش أبيض. كانت تمشي بخطوات هادئة، لا تستعجل الوصول إلى مكان، ولا تبدو منشغلة إلا بإبقاء السلّة متوازنة على ساعدها.

رفع جيوان يده قليلاً.

"عذرًا آنستي"...

توقفت.

لم تلتفت إليه مباشرة، بل أبطأت خطوتها أولاً، ثم استدارت بجسدها كله نحوه، كأنها اعتادت ألا تجيب قبل أن تعرف من يناديها.

أشار إلى التمثال.

"من هذا؟"

اتبعت إصبعه بعينيها.

ثم رفعت رأسها نحو التمثال.

طال صمتها أكثر مما توقع.

كانت تحدق في الوجه الحجري كما لو أنها تحاول أن تستخرج منه ذكرى بعيدة. ضيقت عينيها قليلاً، ثم مالت برأسها إلى أحد الجانبين، كأن تغيير زاوية النظر قد يساعدها على التذكر.

وأخيرًا قالت:

"لا أعلم بالضبط"...

وتوقفت.

حرّكت السلّة قليلاً على ساعدها بعدما بدأ ثقلها يميل.

..."لكنهم يقولون إنه كان حاكم المدينة"...

ثم أتبعت الجملة، وكأنها تعتذر منها قبل أن تخرج:

"على ما أظن".

رفع جيوان نظره إلى التمثال مرة أخرى.

ثم أشار إلى القاعدة الحجرية.

"ألا يوجد اسمه تحت التمثال؟"

تقدمت المرأة خطوة واحدة فقط،

انحنت قليلاً، وجمعت خصلات شعرها خلف أذنها حتى لا تحجب الحروف الباهتة.

ظلت صامتة لحظة.

ثم قالت بهدوء:

"المفروض أنه كان موجودًا".

رفع جيوان حاجبيه.

"وأين ذهب؟"

رفعت رأسها إليه وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة، لم يعرف إن كانت خجلاً أم حيرة، وما لبثت أن اختفت قبل أن تستقر.

قالت:

"نسيه الناس".

ثم نظرت إلى السلّة في يدها، وعدّلت المقبض حول معصمها، كأنها تذكرت فجأة أنها كانت في طريقها إلى مكان ما.

أومأت له إيماءة خفيفة، لا تحمل وداعًا ولا مجاملة، ثم استدارت ومضت.

راقبها جيوان حتى ابتلعتها حركة السوق.

ثم عاد ببصره إلى التمثال.

كان الناس يعبرون الساحة كعادتهم؛ يتبادلون الأحاديث، ويحملون أكياسهم، وتتعالى ضحكاتهم بين الحين والآخر. أما هو... فلم يعد يصل إلى مسمعه شيء من ذلك الصخب.

شعر، وقد نأت به المسافة عن بوابات العبور الأولى، بأن الصمت لا ينبع من غياب الأصوات... بل من تضخم سؤالٍ جاثم، لا يبدو أن أحداً سواه يبحث له عن جواب.

ظل ينظر إلى الإصبع الحجري المرفوع، ثم إلى العبارة المنقوشة أسفله، وشعر للمرة الأولى أن النسيان ليس دائمًا عجزًا في الذاكرة، بل قد يكون الطريقة الأكثر تهذيبًا لقتل الحقيقة.

كان يستطيع أن يغادر المدينة في تلك اللحظة.

بل إن شيئًا داخله كان يلح عليه أن يفعل.

غير أن الفضول، منذ خُلق، لم يكن يعرف كيف يتراجع أمام الخوف.

ولم يكن جيوان يعلم أن بعض المدن لا تحتجز زوارها بالأسوار...

بل بالسؤال الأول الذي يعجزون عن العثور على جوابه.

واصل سيره بخطى وئيدة، حتى استوقفته في ممر الطريق مدرسةٌ شرّعت بوابتها الخارجية، لينسلّ من جوفها صخبٌ طفولي متداخل. تردد لبرهة، ثم قادته خطاه إلى الداخل كمن يستدرج ذكرى قديمة.

وقف يرقب فناء المدرسة؛ لم تكن هذه المدرسة كأي مكان لتعليم الصغار في بقاع الأرض المنسية، بل كانت أشبه بمعمل لإنتاج النخبة المبرمجة؛ حيث يقتصر ارتيادها على أبناء الطبقة المخملية في المدينة.

كان الصغار في الساحة أشبه بدمى معروضة في واجهة متجر فاخر: ثيابهم أنيقة لدرجة مريبة، خصلات شعرهم مصففة بعناية، وابتساماتهم تكشف عن صفوف أسنان متناسقة خضعت لتقويم دقيق. كانوا يبدون وافرِي النعمة، لكنهم في الوقت ذاته، غارقون في رتابة بائسة، ومملون إلى أقصى حد؛ كأن الأناقة الخارجية كانت الضريبة التي دفعوها مقابل إفراغ رؤوسهم من أي شغف أو فضول بشري حقيقي.

عند مشارف الصف الأول، وقف يرقب المشهد؛ معلمٌ بملامح جامدة يقف بوقارٍ آلي أمام سبورة سوداء داكنة، كُتبت في منتصفها خطوط معادلةٍ بقلم طباشير أبيض حادّ.

(٧ + ٥ = ؟)

ارتفعت يد طفلٍ في المقاعد الأمامية بحماسٍ بكر، فأومأ إليه المعلم ببرود

"تفضل".

قال الطفل بزهو وثقة:

"اثنا عشر".

فجأة، خيّم على الصف صمتٌ ثقيل ومفاجئ. أطرق المعلم رأسه في أسفٍ مصطنع، ثم رمق الصغير بنظرةٍ حذرة، وقال بصوتٍ هادئ يحمل نبرة تهديد مبطنة:

"أعد التفكير... جيدا".

احمرّ وجه الطفل تحت وطأة الصمت المسلّط عليه، وتاهت عيناه في مساحة السبورة الضيقة لثوانٍ بدت دهرًا، قبل أن يتمتم بنبرة منكسرة يكسوها الخجل:

"أحد عشر؟".

حينها فقط، انفرجت أسارير المعلم عن ابتسامة رضا باردة

"أحسنت".

ودفعة واحدة، انطلقت تصفيقات التلاميذ الآلية تملأ الفراغ.

أما الصغير الذي نطق بالحقيقة أول مرة وصححها بالخطأ، فقد بقي واقفاً في مكانه، يرتجف ارتباكاً وتيهاً، كمن اقترف إثماً عظيماً لا يدرك كنهه، ولا يملك سبيلًا لغفرانه.

خرج جيوان من المدرسة وهو يشعر بشيء ثقيل يستقر في صدره، وقال لنفسه:

"ربما لم أفهم طريقة التعليم هنا".

كان يستسلم لتعدد الاحتمالات التماسًا للطمأنينة، لكن حين تتناسل التفسيرات الملتوية لتبرير زيفٍ موضوعي بارز، تنهار البنية التحتية للاعتياد، وتبرز الحقيقة كحتمية لا يمكن دحضها.

حين ضحك الجميع

"Every system dreams of replacing obedience with habit."

كان الغروب قد هبط تماماً على المدينة، كستارٍ داكن يسحب معه آخر خيوط النهار، ومعه انتابت جيوان رغبة ملحّة في كوب قهوة ساخن، رغبة تشبه البحث عن نقطة ارتكاز دافئة في محيط يزداد برودة. نظر

حوله، فلمحت عيناه لافتة مقهى قريب يطل على الساحة؛ مقهى من ذلك الطراز القديم الذي لم يعد يوجد منه الكثير الآن، كأنه ناجٍ وحيد من زمن آخر يرفض الانصياع للحاضر.

لطالما آمن جيوان بأن المقاهي ليست مجرد جدران لتقديم الشراب، بل هي مصحّات نفسية غير معلنة للعابرين والغرباء. إنها المساحة الوحيدة التي تتيح للمرء أن يكون وحيداً وسط الحشد، دون أن يشعر بوطأة العزلة، وأن يتخفّى وراء فنجانه ليراقب مسرح الحياة دون أن يطالبه أحد بدور. في المقهى، تذوب الهويات الشخصية ويصبح الجميع متساوين في رغبتهم في اقتطاع هدنة مؤقتة من صخب العالم ومخاوفهم الذاتية. كان جيوان بحاجة إلى تلك الهدنة، إلى فضاء يمتص قلقه، فدفع الباب متسللًا إلى الداخل.

كان يقع في زاوية مبنى حجري قديم، تظلّل واجهته كرمة يابسة التفّت أغصانها حول الشرفة الخشبية حتى لم يعد أحد يعرف أيهما يسند الآخر. لم يكن المقهى كبيرًا، لكنه بدا كأنه موجود منذ زمن أطول من المدينة نفسها. كانت الطاولات مستديرة، من خشب داكن تتشابك فوقه دوائر باهتة تركتها فناجين قهوة لا يعرف أحد أصحابها، وقد صقلت السنين أطرافها ومواضع استقرار الأكف، حتى صار الخشب يلمع هناك وحده، بينما بقيت بقية الطاولة تحتفظ بخشونتها الأولى. أما الكراسي، فقد اختلفت أشكالها حتى خُيّل إليه أن كل واحد منها نجا من بيت مختلف.

في الداخل، كانت رائحة البن المحمّص تمتزج بدخان سجائر قديم استقر في الجدران منذ سنوات ولم يغادرها. ومن جهاز أسود موضوع فوق رف مرتفع، كانت تنساب موسيقى هادئة تعزفها آلة كمان منفردة، تدور في اللحن نفسه مرة بعد أخرى، حتى بدا أن المقطوعة، مثل أهل المدينة، نسيت كيف تنتهي.

اختار طاولة تطل على الساحة.

كانت نافذة المقهى مفتوحة، فيدخل منها هواء المساء محمّلاً بأصوات الحمام الذي يحط على النافورة، وبوقع خطوات المارة التي بدت متشابهة على نحو يثير الانتباه.

اقترب النادل بخطوات خفيفة، يمسح يديه بمنديل أبيض كان قد فقد بياضه منذ زمن. كان شابًا نحيلاً، يرتدي قميصًا واسعًا أكبر من مقاسه، وقد التفّ المئزر حول خصره بعقدة مرتخية جعلته يهبط قليلاً مع كل خطوة. وكان شعره مصفّفًا بعناية مبالغ فيها، حتى إن خصلة واحدة لم تجرؤ على الخروج من مكانها، بينما ظل أحد أزرار قميصه مغلقًا في الثقب الخطأ، فبدت ياقته مائلة من دون أن ينتبه.

توقف أمام جيوان، وانحنى قليلاً إلى الأمام، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة، بدت أوسع من المناسبة نفسها ومسح كفيه بالمئزر.

"ماذا تشرب يا سيدي؟"

"قهوة".

أومأ النادل بحماس.

"حاضر".

واختفى داخل المقهى.

بعد دقائق عاد يحمل كوبًا زجاجيًا يتصاعد منه بخار خفيف.

وضعه أمام جيوان بفخر واضح.

نظر جيوان إلى الكوب.

ثم إلى النادل.

كانت الرائحة كافية.

يانسون.

رفع رأسه مبتسمًا.

"أظن أن هناك خطأ صغيرًا".

اختفت الابتسامة عن وجه النادل.

"خطأ؟"

أشار جيوان إلى الكوب.

"طلبت قهوة".

فتح النادل فمه قليلاً.

ثم نظر إلى الكوب.

ثم إلى جيوان.

ثم عاد ينظر إلى الكوب، كأنه يراه للمرة الأولى.

"آه"...

التقطه بسرعة.

"صحيح".

واختفى مجددًا.

ظل جيوان يتابعه بعينيه حتى اختفى خلف الباب.

بعد أقل من دقيقة عاد النادل.

لكن هذه المرة لم يكن يحمل شيئًا.

وقف أمام الطاولة.

وأخذ نفسًا قصيرًا.

ثم سأل بجدية كاملة:

"قلت لي شاي... أم زهورات؟"

حدّق به جيوان لحظة.

ثم لم يستطع منع نفسه من الابتسام.

"قهوة".

أومأ النادل فورًا.

"صحيح صحيح".

وكأنه تذكر الأمر بنفسه.

ثم استدار واختفى مرّة جديدة.

في الطاولة المجاورة، رفع رجل عينيه عن جريدته، ثم أعادهما إليها من دون تعليق.

مرت دقائق أخرى.

عاد النادل أخيرًا وهو يحمل صينية صغيرة.

عليها فنجان قهوة.

وكوب ماء.

سكّر وملعقة.

وضعها بعناية أمام جيوان.

ثم بقي واقفًا ينتظر.

رفع جيوان الفنجان.

ارتشف رشفة صغيرة.

كانت القهوة باردة.

باردة تمامًا.

كأنها أُعدّت منذ ساعات.

ما إن لمح النادل التغير الطفيف في ملامحه حتى ضرب كفًا بكف.

وأغمض عينيه.

"يا إلهي".

ثم انحنى بسرعة والتقط الفنجان.

"لحظة واحدة".

هذه المرّة ركض فعلاً نحو الداخل.

سمع جيوان صوت شيء سقط.

ثم صوت اعتذار.

ثم صوت شخص يضحك.

وبعدها عاد النادل.

كان يحمل فنجانًا جديدًا بكلتا يديه، كما يحمل المرء شيئًا هشًا لا يريد أن يخسره.

اقترب ببطء شديد.

ووضع الفنجان أمامه.

ثم تراجع خطوة.

ولم يغادر.

بقي واقفًا يراقبه.

رفع جيوان الفنجان.

ارتشف.

كانت القهوة ساخنة وطعمها لذيذ.

أخيرًا.

رفع رأسه.

فوجد النادل ما يزال واقفًا ينتظر الحكم.

ابتسم جيوان.

"ممتازة".

في اللحظة نفسها أطلق النادل زفرة ارتياح طويلة.

ثم رفع قبضته الصغيرة في الهواء كمن حقق انتصارًا شخصيًا، وابتسم ابتسامة المنتصر. كانت ابتسامة طفل نجح أخيرًا في ربط حذائه وحده.

ابتسم بعض رواد المقهى.

ثم ضحك أحدهم.

وبعده مباشرة ضحك الآخر.

ثم الثالث.

وخلال ثوانٍ قليلة، كانت الطاولات كلها تضحك.

التفت جيوان إليهم.

لم يكن الضحك عاليًا، ولا هستيريًا، لكنه بدا منظّمًا على نحو أربكه. كان كل واحد منهم ينظر سريعًا إلى الجالس بقربه قبل أن يبتسم، كأن الضحك هنا لا يبدأ من الداخل، بل يحتاج إلى أن يتأكد أولاً من أن الآخرين سيفعلونه أيضًا.

حاول أن يشاركهم الضحكة.

لكنها توقفت على شفتيه.

شعر، للمرة الأولى، أن الضحك يمكن أن يكون عادة... لا شعورًا.

وأن الابتسامات، إذا انتظرت الإذن طويلاً، قد تنسى الطريق إلى أصحابها.

أخذ رشفة من قهوته.

كانت رائعة. لها نكهة لطيفة جدًا.

لكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة ظلت ترافقه وهو ينظر إلى الوجوه من حوله: ليس كل من يضحك سعيدًا... وأخطر الضحكات، تلك التي لا يعرف أصحابها لماذا بدأت.

على وقع تلك الضحكات المبهمة العائمة في فضاء المقهى، ووسط رنين الكؤوس المعدنية ورائحة التبغ الرخيص المتكاثفة في الزوايا، انسلّ إلى مسامع جيوان صوت همسات قريبة، تتخللها ضحكة مكتومة وصغيرة ذات جرسٍ مختلف؛ ضحكة عارية يملؤها الحرج والاضطراب. كان

يجلس على الطاولة المجاورة شابان لم يتجاوزا عتبة العشرين من عمرهما، برؤوس متقاربة كمتآمرَين يخططان لسرقة مصيرية.

لم يكن جيوان يقصد التلصص، لكن نبرة صوتهما المتوترة المخلوطة بتلك الهزائم الصغيرة في ضحكاتهما، كانت تخترق فقاعة صمته وتبدد عزلته الدافئة. كان أحدهما يفرك كفيه بتوتر، وعيناه تلمعان ببريق غريزي حاد ومحتقن، وهو يهمس للآخر بكلام يقطر قهراً:

-" لم يعد بإمكاني الاحتمال أكثر.. كل ليلة أغمض عيني فأرى أجساداً تتعرى، أستيقظ وعضوي متصلب كالصخر، وحشفته حمراء حارقة ملتهبة كالجمر .أمارس تمرينات الضغط حتى ينهكني التعب، لكن الصور تظل هناك، تطاردني في نومي وصحوي. والدي وعدني أنه بنهاية الصيف سيزوجني.. لا يهم من هي! أي امرأة، أي جسد يطفئ هذه النار التي تأكلني.. المهم أن تكون مطيعة وعفيفة، وبعدها سأرتاح".

أومأ له صديقه بابتسامة خبيثة وعينين ذابلتين من فرط الخيالات المماثلة، وكأنهما شريكان في زنزانة واحدة ينتظران صك الإفراج.

هزت هذه الكلمات وعاء تفكير جيوان هزاً عنيفاً. تراجع بظهره إلى الخلف، يراقب حركاتهما الشرهة، وشعر بغصة مريرة تلفّ حنجرته. لم تكن هذه مجرد رغبة عابرة لشابين يافعين، بل كانت المأساة الكبرى لمدينة كاملة تئن تحت وطأة كبت جماعي مخيف. هنا، لا يبحث الناس عن الحب؛ فالحب ترفٌ لا تطيقه الأجساد الجائعة وعقول البرمجة السائدة. إنهم يتزوجون ليحصلوا على "ترخيص رسمي" لممارسة الحياة، ليهربوا من وطأة خطاياهم المتخيلة إلى طمأنينة الفراش الشرعي. تتحول المرأة في هذه المعادلة البائسة من شريكة روح وجودية إلى مجرد "ملجأ لتفريغ الطاقات الذكورية"؛ وعاء يُسكب فيه القهر اليومي ليرتاح الرجل من وخز لحمه وعقله، دون أدنى اكتراث بالمسؤولية، أو العاطفة، أو الكينونة الإنسانية لتلك التي تشاركه الفراش.

تنبه جيوان إلى أن هذا المشهد البائس هو الضلع الثالث في مثلث السيطرة؛ فالسلطة في هذه المدينة لا تخشى شيئاً كما تخشى العقول الشابة إذا أفاقت وفكرت في حقوقها وكرامتها وفساد حكامها. ولذلك، كان من الحكمة السياسية العليا أن يُترك هذا الشعب يلهث وراء غرائزه، أن ينشغل بأعضائه التناسلية ويغرق في وحل الكبت والخوف من الخطيئة، بدلًا من أن ينشغل بحريته المسلوبة. الزواج التقليدي هنا ليس لبناء الحياة، بل هو "مهدئ اجتماعي" يُعطى للقطيع ليبقى وديعاً داخل الحظيرة.

نظر جيوان إلى فنجان قهوته الذي بدأ يبرد، وشعر بأسى جارف وشفقة عميقة تتسلل إلى أعماقه؛ شفقة على جيل كامل يتم إخصاء وعيه بالشهوة والخوف. تذكر سلمى، تذكر كيف كان حبهما فضاءً رحباً من

التماهي الروحي والعقلي قبل الجسدي، تذكر كيف رفعت سقف العشق عالياً حتى صار اللمس معها طقساً مقدساً ينبثق من طاقة التفاهم التام. تنهد بعمق، وهو يدرك أن غربته في هذه المدينة لم تكن في شوارعها، بل في فجوة الوعي الشاسعة التي تفصله عن كائناتها.

الرجل الذي عاد ناقصًا

" Some books wait for the right reader. Others wait for the right wound."

في تلك الليلة، استعصى النوم على جيوان.

أطفأ المصباح أكثر من مرّة، ثم عاد فأشعله، كأن الظلام لم يعد كافياً ليغلق يومه. كانت الغرفة هادئة إلى درجة أنه استطاع أن يسمع عقارب الساعة في الممر، واحتكاك أغصان الأشجار بزجاج النافذة كلما مرّت نسمة خفيفة. ومن بعيد، كانت تصل إليه الموسيقى نفسها التي

سمعها في المقهى، باهتة ومتقطعة، كأن المدينة تعيد اللحن ذاته حتى وهي نائمة.

استلقى محدّقاً في السقف.

جلس على حافة السرير، وأدار رأسه نحو حقيبته الملقاة عند القدم. فكّر أن القراءة، ربما، تنجح حيث فشل الظلام. مدّ يده إلى الداخل، وتحسّس بين الثياب حتى لمس غلافاً خشناً صار طرفه ليّناً من كثرة ما لُمس.

أخرج الكتاب.

كان كتاباً رقيقاً، لا يتجاوز مئة صفحة، بعنوان «الرجل الذي عاد ناقصًا» — رواية، لم يعثر يوماً على اسم مؤلفها، إذ كان الغلاف قد فقد سطره الأول منذ زمن، ولم يبقَ منه إلا حرفان أخيران من اسم لم يعد بالإمكان استرجاعه. اشتراه قبل ثلاث سنوات، من رفّ متهالك أمام مكتبة صغيرة في مدينة ساحلية، لم يعد يذكر اسمها هو الآخر، مقابل ثلاثة دولارات ساومه عليها البائع حتى نزل بها إلى اثنين، فأصرّ جيوان على دفع الثالث، كأنه لم يشأ يومًا أن يقايض كتابًا بأقل مما يستحق.

كانت أوراقه قد اصفرّت على نحوٍ غير متساوٍ، حتى بدا الزمن وكأنه مرّ على كل صفحة في وقت مختلف، وبعض حواف الصفحات ابتلّ يوماً ثم جفّ، فتركت الرطوبة تجعيدة خفيفة لم تفارقها منذ ذلك الحين. وعلى هوامش الصفحات، كانت خطوط رصاص باهتة، بخط يد لم يكن خطّه هو، قد سبقته إلى هذا الكتاب: كلمة تحتها خط هنا، علامة استفهام هناك، وفي إحدى الصفحات، بجانب فقرة عن الوداع، كُتب بخط صغير: «هذا بالضبط».

لم يكمل قراءته قط.

كان يبدأه من الصفحة الأولى كلما وصل إلى مدينة جديدة، ثم يتوقف بعد عشرين صفحة أو ثلاثين، كأن شيئاً في الكتاب يشبه حياته أكثر مما يحتمل، فيُعيده إلى الحقيبة، ويحمله معه، غير مقروء، إلى المدينة التالية.

فتحه عند العلامة القديمة نفسها التي تركها فيه منذ أشهر، وقرأ:

«ثمة رجال لا يعرفون متى غادروا حياتهم الأولى، إلى أن يجدوا أنفسهم يبتسمون لغرباء بالطريقة ذاتها التي كانوا يبتسمون بها لمن أحبّوهم.»

توقف.

أعاد قراءة الجملة.

لم يكن يذكر أنه مرّ بهذه الصفحة من قبل، رغم أن العلامة كانت هناك، بين هذه الورقة والتي تليها، منذ آخر مرّة أمسك فيها الكتاب.

قلّب صفحة أخرى، بحثاً عمّا يهدّئه، فوقعت عيناه على سطر آخر:

«المدن لا تُخفي شيئاً عن الغرباء، بل تنتظر منهم أن يكفّوا عن السؤال، كما يفعل أهلها.»

أغلق الكتاب بسرعة، كأنه لمس شيئاً ساخناً.

نظر إلى الغلاف الفارغ من اسم صاحبه، وفكّر، للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات، أنه ربما لم يكن يهرب من قراءة هذا الكتاب، بل من إجابة كان يعرفها فيه، ولم يكن مستعداً لها.

وضع الكتاب على الطاولة الخشبية، وأطفأ المصباح.

في العتمة، وتحت وطأة الصمت الذي أعقب ضجيج النهار، تضخمت تلك الومضة العابرة التي باغتته في المقهى لتتحول إلى حضور كامل. لم يعد

وجه سلمى مجرد فكرة يقارن بها بؤس المدينة، بل هجمت عليه هي ذاتها، بكامل تفاصيلها.

سلمى ...

ها هي تعود إليه الآن، بالتفاصيل الصغيرة التي لا تُستدعى، بل تهجم: رائحة جلدها حين كان يقرّب وجهه من عنقها في العتمة، مزيج غامض من صابون فرنسي وشيء آخر لم يفلح يوماً في تسميته؛ الطريقة التي كانت تعقد بها شعرها بقلم رصاص حين تنسى ربطة شعرها في مكان ما؛ وضحكتها التي كانت تُفلت منها فجأة، أعلى مما تسمح به الغرفة، فتضع كفّها على فمها بعد فوات الأوان، كأنها فوجئت بفرحها قبل أن يفاجئ أحداً غيرها.

لعلّ ما استحضرها الليلة تحديداً لم يكن اشتياقاً مفاجئاً، بل رجلًا وقف أمامه في السوق قبل ساعات، وهمس له ألاّ يسمّي الأشياء بصوت

مرتفع. كانت سلمى، على النقيض تمامًا، تُصرّ على أن تُسمّي الأشياء بأسمائها، كأنها كانت تؤمن أن الحقيقة تبدأ من الاسم.

كانت تملك عادة غريبة؛ إذا أخطأ أحد في حديثه، صحّحته بلطف، ثم ضحكت. لم يكن يخطر في بال جيوان يومها أن يأتي وقت يصبح فيه الخطأ هو القاعدة، وأن يشتاق إلى امرأة كانت تتوقف عند كلمة في غير مكانها.

لم تقل يوماً "ابتعدنا قليلًا" حين كانت تقصد أنهما توقّفا عن حبّ بعضهما، ولا "مررنا بظرف صعب" حين كانت تقصد أنهما أخطآ. كانت تُصرّ على الكلمة الكاملة، مهما كلّفتها، وتقول إن تخفيف اللفظ لا يُخفّف الفعل، بل تؤجل مواجهته إلى وقت يكون فيه أكثر قسوة.

اشتاق، في تلك اللحظة، لا إلى صوتها وحده، بل إلى امرأة كانت تصحّح له أخطاءه الصغيرة، في زمن صار فيه الخطأ يُصفَّق له.

تذكّر المساء الذي ودّعته فيه، على رصيف لم يكن يعرف، حينها، أنه سيتذكره طوال حياته. لم تبكِ. قالت جملة واحدة فقط، بهدوء أزعجه أكثر من أي دمعة: «أنت لا تسافر لتصل إلى مكان، أنت تسافر لتغادر نفسك. وأنا لا أستطيع أن أسافر معك إلى هناك.»

لم يجد يومها ما يردّ به.

ولم يجد، حتى الآن، ما يردّ به.

فكّر أنه، منذ تلك الليلة، لم يعد يحبّ بالطريقة نفسها، ولا يكره، ولا يخاف، ولا حتى يفرح، بالطريقة نفسها. كأن الرجل الذي أحبّها بقي هناك، على ذلك الرصيف، بينما تابع هو وحده، بجسد يشبهه، وذاكرة رجل آخر.

طوى الذكرى كما يطوي المرء رسالة لا يريد أن يُكملها، وأعادها إلى المكان الذي أتت منه.

عاد يحدّق في السقف من جديد.

كلما أغمض عينيه، عادت الوجوه.

وجه بائع الصحف وهو يطوي الخبر عن الجسر بعناية لا تشبه عناية الباعة بالورق، بل عناية الناس بالأسرار. وجه صاحبة النزل وهي تبحث عن الدفتر وهو أمامها، ثم تدفع إليه حفنة من المفاتيح وكأن الصدفة أصدق من المعرفة. وجه النادل الذي احتفل لأنه نجح، أخيراً، في أن يحمل القهوة والسكر والفنجان في رحلة واحدة. ثم ذلك التمثال... إصبعه المرفوع الذي ظل معلقاً في ذاكرته أكثر مما ظل معلقاً في الهواء.

لم يكن أي منهم أحمق.

بل على العكس.

كانت أعينهم يقظة، تتحرك بثبات، وتلتقط التفاصيل الصغيرة بسرعة لا تخطئها العين. كانت لغتهم سليمة، وخطواتهم موزونة، ووجوههم تخلو من ذلك الشرود الذي يسبق النسيان الحقيقي. كل شيء فيهم كان يوحي بأنهم قادرون على التفكير...

لكنهم، في اللحظة الأخيرة دائماً، كانوا يتركون الفكرة تسقط من أيديهم، كما يسقط طفل لعبته قبل أن يمسك بها.

أغمض عينيه من جديد.

وخطر له خاطر لم يُرقْ له.

ماذا لو أن الغباء ليس غياب العقل... بل الامتناع عن استخدامه؟

ظل يتقلب في فراشه.

كان يشعر أن المدينة لا تخفي عنه شيئاً، بل تفعل ما هو أكثر إرباكاً؛ كانت تعرض كل شيء أمامه، ثم تنزع من الأشياء معناها في اللحظة التي يمد فيها يده إليها.

تذكر عبارة المرأة أمام التمثال: «نسيه الناس».

بدت له الجملة، في تلك الساعة من الليل، أثقل مما كانت عليه في النهار. فالأسماء لا تختفي وحدها، والذاكرة لا تُفرغ نفسها بنفسها. لا بد أن هناك لحظة ما، في مكان ما، يختار فيها الإنسان أن ينسى... ثم ينسى، بعد زمن، أنه هو من اختار.

شعر بقشعريرة خفيفة.

ونهض إلى النافذة.

كانت الساحة خالية إلا من التمثال، وقد غمره ضوء القمر حتى بدا إصبعه المرفوع أكثر وضوحاً من النهار. للحظة، خُيّل إليه أن التمثال لا يشير إلى السماء، ولا يهدد أحداً...

بل يطلب من المدينة كلها أن تظل على حالها.

أغلق الستارة ببطء، وعاد إلى فراشه.

وقبل أن يغلبه النعاس بقليل، مرّت في ذهنه فكرة لم يعرف من أين جاءت: ربما لا تبدأ المدن الغريبة حين تدخلها... بل حين تبدأ بالدفاع عنها في داخلك.

وربما، لهذا السبب بالذات، لم يكن قادراً على إنهاء ذلك الكتاب: لم يكن يخشى أن يعرف النهاية ...بل أن يكتشف أن الكتاب كان يعرفه قبل أن يعرف هو نفسه.

ما لم يُكتب

"People don't fear the truth. They fear what it demands of them."

في صباح اليوم الثالث، استيقظ جيوان على غير عادته قبل شروق الشمس. لم يكن قد نام إلا ساعات قليلة، وكانت المدينة قد دخلت أحلامه بطريقة لم تعجبه. لم يرَ كوابيس، لكنه رأى وجوهًا كثيرة تبتسم بالطريقة نفسها، ثم تستيقظ في اللحظة نفسها، وتمضي إلى أعمالها من دون أن يقول أحد كلمة واحدة.

حين فتح نافذته، كانت الساحة لا تزال شبه خالية. وقف طويلاً يراقبها، فلاحظ أمرًا لم ينتبه إليه في الأمس. لم يكن أحد يمر أمام التمثال من منتصف الساحة. الجميع، من دون استثناء، كانوا ينحرفون عنه بخطوات قليلة، ثم يعودون إلى طريقهم، كأن في المكان نقطة غير مرئية لا يجوز الوقوف فوقها.

قال في نفسه إن الأمر لا بد أن يكون مصادفة.

ظل يراقب ساعة كاملة، واتخذ قراره بالبقاء أيامًا أخرى. لم يعد الفضول وحده هو ما يبقيه في المدينة، بل إحساس غامض بأنه يقف أمام لغز لا يريد أن يُحل.

أغلق النافذة ونزل إلى الشارع.

بدأ يراقب الناس بدل أن يحدثهم.

جلس ساعات طويلة في الساحة الرئيسية، يكتفي بالنظر. لاحظ أن الأخطاء لا تقع إلا حين يكون هناك من يراها. كان البائع يخطئ في حساب النقود أمام الزبون، لكنه حين ينصرف، يعيد ترتيب صندوقه بدقة محاسب. وكان ساعي البريد يتظاهر بأنه نسي عنوان المنزل، ثم يسير إليه مباشرة من دون أن يتوقف ليسأل أحدًا. وحتى الأطفال، كانوا يجيبون إجابات عجيبة أمام المعلمين، ثم ما إن ينتهي الدرس حتى يتناقشون فيما بينهم في مسائل أعقد بكثير مما دُرّس لهم.

قال في نفسه:

"إنهم ليسوا أغبياء... إنهم يخفون شيئًا".

في ظهر ذلك اليوم، مر من أمام دار البلدية، وقف يتأمله، لم يكن قد نوى الدخول، لكنه وجد نفسه يقف أمام المدخل دون أن يشعر ما سرّ هذا الانجذاب.

كان المبنى أقدم من بقية الأبنية، مبنيًا من حجارة داكنة فقدت لونها الأصلي. فوق الباب ساعة كبيرة توقفت عقاربها عند العاشرة منذ زمن بعيد، ومع ذلك، كان الداخلون والخارجون يرفعون رؤوسهم إليها كلما مروا، كما لو أنها ما زالت تخبرهم بالوقت.

دفع الباب.

استقبله ممر طويل تنبعث منه رائحة ورق قديم ورطوبة لم تغادر الجدران منذ سنوات. في آخر الممر كانت قاعة واسعة، يجلس فيها عشرات الموظفين خلف مكاتب خشبية متشابهة. لم يكن أحد يرفع صوته، ولم يكن أحد يعمل بسرعة، لكن الغريب أن الطابور كان يتحرك باستمرار، وكأن البطء نفسه أصبح نظامًا دقيقًا.

جلس ينتظر رغم أنه لم يكن يريد معاملة، بل أراد أن يرى كيف تسير الأمور في أكثر الأماكن التي تحتاج إلى الدقة.

كان أمامه رجل مسن يحمل مجموعة أوراق ربطها بخيط أحمر باهت. كان يضمّها إلى صدره بكلتا يديه، كما يضمّ المرء شيئًا يخشى أن يتفكك إذا تركه.

وصل إلى الموظف.

فكّ العقدة ببطء، ثم دفع الأوراق فوق المكتب.

لم يرفع الموظف رأسه مباشرة.

أخذ يسوّي زوايا الملف أولاً، ثم فتحه، وأخذ يقلب صفحاته بإصبع مبلل بطرف لسانه. كان يقرأ كل صفحة بعناية مبالغ فيها، يهز رأسه أحيانًا، ويتمتم بكلمات لا تُسمع.

بعد وقت، رفع عينيه.

"ما اسمك؟"

أجابه الرجل.

أعاد الموظف بصره إلى الأوراق.

"وتاريخ ميلادك؟"

أجابه.

مد الموظف يده إلى سجل ضخم استقر إلى جانبه، حتى اضطر إلى جذبه بكلتا يديه. انفتح السجل بصوت ثقيل، وتصاعدت منه رائحة ورق قديم وحبر جف منذ زمن.

راح يقلب صفحاته ببطء.

يتوقف عند كل صفحة.

ثم ينتقل إلى التي تليها.

طال بحثه حتى بدأ الواقفون في الطابور ينقلون ثقل أجسادهم من قدم إلى أخرى.

وأخيرًا أغلق السجل.

ربت عليه براحة يده مرة واحدة.

ثم قال، بنبرة هادئة لا تحمل شكًا ولا سخرية:

"لا أظن أنك وُلدت".

ساد الصمت.

خفض الرجل المسن عينيه إلى أوراقه، وأخذ يعيد جمعها في هدوء، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، كأن الموظف ذكّره بأمر كان قد نسيه فعلاً.

"معك حق"...

أعاد لف الخيط الأحمر حول الملف.

..."ربما نسيت".

ثم حمل أوراقه، واستدار، وغادر الطابور بخطواته نفسها التي جاء بها.

لم يعترض أحد.

لم يضحك أحد.

حتى المرأة الواقفة خلفه، والتي كانت تمسك بيد طفلها، بقيت تنظر إلى الفراغ أمامها، كأن ما قيل لم يكن أغرب من سؤال عن طريقة تحضير البطاطا المقلية.

أما الموظف، فقد فتح الملف التالي، وغمس الختم في الحبر، وواصل عمله بالإيقاع نفسه، كأن الجملة التي قالها قبل لحظات لم تغادر فمه أصلاً.

شعر جيوان بشيء يضيق في صدره.

لم يكن الخطأ هو ما أربكه.

بل تلك الطمأنينة التي استقبله بها الجميع.

وكأن الحقيقة، هنا، لا تُكتشف...

بل تُعتمد.

ظل واقفًا مكانه حتى سمع الموظف يناديه.

اقترب، وجلس على الكرسي المقابل للمكتب.

كان الموظف في منتصف العمر، أصلع من مقدمة رأسه، يضع نظارة مستديرة تنزلق كل قليل إلى طرف أنفه، فيرفعها بإصبعه من غير أن يقطع الكتابة.

كتب سطرًا آخر.

نفخ على الحبر ليجف.

ثم رفع رأسه.

"بماذا أستطيع أن أخدمك؟"

تردد جيوان.

راح يدير قبعته بين يديه لحظة، ثم قال:

"في الحقيقة"...

وسكت.

رفع الموظف حاجبًا واحدًا ينتظر.

..."لا شيء".

توقفت حركة القلم.

بقيت سنّه معلقة فوق الورقة.

رفع الموظف بصره إليه ببطء.

"إذن"...

أغلق الدفتر برفق.

..."لماذا حضرت؟"

تنقل نظر جيوان بين الدفتر المغلق والنافذة خلف الموظف.

ثم قال:

"لأرى".

بقي الموظف ينظر إليه.

ولأول مرة، شعر جيوان أن أحدًا في هذه المدينة لا ينظر إلى وجهه فقط، بل إلى ما وراءه.

أرخى الموظف كتفيه قليلاً.

ثم شبك أصابعه فوق المكتب.

وقال بصوت أخفض من السابق:

"أنت لست من المدينة".

صمت لحظة.

ثم أضاف:

"فلا أنصحك بأن تفعل ذلك".

قطب جيوان حاجبيه.

"أن أفعل ماذا؟"

حرّك الموظف إبهامه فوق مفاصل يده الأخرى، وظل ينظر إلى أصابعه وهو يجيب:

"أن ترى".

رفع عينيه إليه أخيرًا.

لم يكن في نظرته خوف.

ولا تهديد.

بل تعب قديم، يشبه تعب رجل يكرّر الجملة نفسها منذ سنوات، ولم يعد ينتظر من أحد أن يفهمها.

فتح جيوان فمه ليطرح سؤالاً آخر.

لكن شيئًا جذب انتباهه.

في آخر القاعة، قرب الباب، كان يقف رجل لا يحمل ملفًا، ولا ينتظر دوره، ولا يتحدث إلى أحد.

يداه خلف ظهره.

وعيناه معلقتان بهما.

كان يراقبهما.

بهدوء كامل.

وحين التقت عيناه بعيني جيوان، لم يشيح بصره فورًا، بل ظل ثابتًا لحظة قصيرة، ثم خفض رأسه ببطء، واستدار، وغادر القاعة من غير أن يُحدث صوتًا.

ظل جيوان يتبعه بعينيه حتى اختفى.

وعندما التفت من جديد، وجد الموظف قد عاد إلى الكتابة، كأن الرجل لم يكن موجودًا أصلاً.

خرج من مبنى البلدية بخطوات سريعة وقد بدأ يشعر بأن المدينة لا تخفي سرًا واحدًا، بل تخفي اتفاقًا كاملاً، اتفاقًا لا يعرف نصه أحد، لكنه يحكم الجميع.

خارج الإتفاق

"Instinct never asked for permission."

خرج جيوان من مبنى البلدية بخطوات أسرع مما دخل. كان يشعر بثقلٍ غامض في صدره، كأن هواء القاعة لم يغادر رئتيه بعد. لم يكن يعرف إلى أين يريد أن يذهب، لكنه كان يعرف أنه لا يريد أن يبقى هناك دقيقة أخرى.

وحين رفع رأسه، وجد نفسه قد عاد، من غير قصد، إلى الساحة.

كانت الساحة كما تركها في الصباح؛ هادئة على نحو يبعث على الريبة. امرأة تعبر الطريق وهي تضم بين ذراعيها لفافة قماش طويلة، ورجل يجر عربة صغيرة امتلأت بأصص الريحان، وصبي يقف عند نافذة متجر يراقب انعكاس وجهه على الزجاج. الجميع يتحرك بإيقاع بطيء، كأن الوقت هنا لا يمضي، بل يدور في المكان نفسه.

وفي وسط الساحة، ظل التمثال الحجري قائمًا بإصبعه المرفوع، بينما كانت حركة الناس تنساب حوله بانحرافٍ يكاد لا يُرى. لم يكن أحد يقترب منه، ولم يكن أحد يصطدم بقاعدته. كانوا يغيرون مسارهم قبل الوصول إليه بخطوات قليلة، ثم يكملون طريقهم، كما يفعل الماء حين يلتف حول صخرة ثابتة. بدا الأمر طبيعيًا إلى درجة لا تسمح لأحد بأن يلاحظه... إلا إذا كان غريبًا.

عندها...

سمع النباح.

التفت.

كان الكلب الأشقر يقف عند قاعدة التمثال.

هو نفسه الذي رآه يوم دخل المدينة، مستلقيًا تحت ظل الأسفندان عند البوابة الحجرية.

رفع الكلب رأسه نحو الوجه الحجري.

ونبح.

سكت لحظة.

ثم نبح مرة أخرى.

كان نباحًا واضحًا، حادًا، يقطع السكون كما يقطع حجرٌ صفحة ماء ساكنة. لكن أحدًا لم يلتفت.

مرت امرأة على بعد خطوات، وعدلت طريقها قليلاً لتتجنب الاقتراب من قاعدة التمثال، ثم واصلت سيرها بعينيها المعلقتين أمامها، كأن النباح جزء مألوف من المكان، أو كأنه لم يكن موجودًا أصلاً.

ظل جيوان يراقب المشهد.

لم يكن يعرف أي الأمرين أكثر غرابة...

أن يقف كلب وينبح على تمثال.

أم أن مدينة كاملة لا يبدو أنها تسمع صوتًا بهذا الوضوح.

أدار ظهره للساحة، وسار بلا هدف حتى انتهى إلى زقاق ضيق ينتهي بجدار حجري قديم، التصقت به نباتات برية خرجت من بين الشقوق كأنها وجدت في الإهمال فرصة للنمو. جلس على حافة الرصيف، ووضع حقيبته إلى جانبه، ثم أخرج منها علبة السجائر.

لم يبق فيها إلا سيجارة واحدة.

أشعلها، وأخذ يتابع خيط الدخان وهو يتلوى في الهواء قبل أن يذوب فيه، وفكر أن الدخان، على الأقل، لا يتظاهر بأنه يعرف إلى أين يذهب.

بعد دقائق، سمع وقع أقدام خفيف.

رفع رأسه.

كان الكلب.

وقف على مسافة قصيرة منه، من غير أن يقترب أكثر، واكتفى بالنظر إليه.

احتاج جيوان لحظة حتى تذكره.

كان هو نفسه.

الكلب الذي لم يمنحه عند بوابة المدينة سوى نظرة عابرة.

أما الآن، فقد بدا حضوره مألوفًا بصورة أربكته.

فتح حقيبته مرة أخرى، وأخرج قطعة خبز بقيت من إفطاره. كسرها نصفين، ثم رمى أحدهما نحوالكلب.

اقترب بهدوء.

شمها أولاً.

ثم حملها بين أسنانه، وابتعد خطوات قليلة قبل أن يأكلها ببطء.

بعدها عاد.

واستلقى على الرصيف المقابل، واضعًا رأسه بين كفيه الأماميتين.

كانت عيناه لا تفارقان جيوان.

لم يكن فيهما رجاء، ولا خوف.

ولا ذلك التردد الذي صار يراه في وجوه البشر كلما تحدث إليهم.

كان ينظر إليه كما تنظر الحيوانات دائمًا...

من غير أن تحاول أن تبدو أذكى، أو ألطف، أو أكثر اقتناعًا مما هي عليه.

أطفأ جيوان سيجارته، وأغلق حقيبته، ثم نهض.

لم يدعُ الكلب ليتبعه.

ولم يلتفت ليرى إن كان سيفعل.

لكنه، بعد خطوات، سمع وقع الأقدام نفسه خلفه.

واصل السير، وحين بلغا الساحة من جديد، توقف الكلب فجأة.

ترك جيوان.

واتجه وحده إلى التمثال.

وقف عند قاعدته ورفع رأسه ثم نبح.

مرة.

ثم ثانية.

ظل العابرون يذرعون الساحة بالإيقاع الرتيب ذاته، يلتفون في حلقاتٍ دائرية حول التمثال كعادتهم دائمًا، دون أن يجسر أحدهم على رفع عينيه نحوه، ودون أن تبدو من أيّ منهم التفاتة عابرة نحو الكلب.

أما جيوان، فقد سمرته الحيرة في بقعته، شاخصًا ببصره في ذلك المشهد المكرر.

وتملّكه في تلك اللحظة يقينٌ باهظ، تشكّل ببطء في ثنايا عزلته المتراكمة، بأن الكائن الوحيد في هذه الرقعة الشاسعة الذي ما زال يتصرف بوحيٍ خالص مما تمليه عليه فطرته الأولى ...لم يكن إنسانًا.

لم يكن مرضًا

"A lie repeated for generations eventually forgets it was ever a lie."

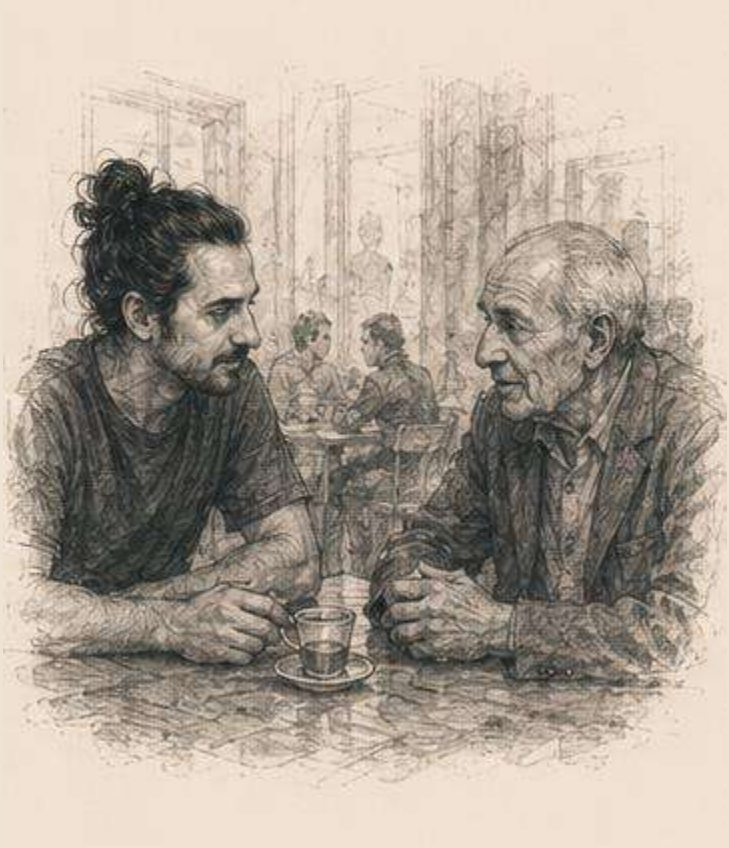

حين عاد جيوان إلى المقهى، كانت السماء قد ابتلعت آخر خيط من ضوء النهار. اشتعلت المصابيح الصفراء المعلقة على الجدران، فغرقت الوجوه في نصف ظل، بينما أخذت الأسطوانة القديمة القابعة قرب الرف تدور ببطء، تنثر لحنًا هادئًا بدا وكأنه خرج من زمن أبعد من عمر المدينة نفسها.

كان المكان مزدحمًا أكثر من المرّة السابقة، لكن ضجيجه بدا مكتومًا، كأن الأصوات تتجنب أن ترتفع أكثر مما ينبغي.

في الزاوية البعيدة جلس الرجل المسن الذي رآه في مبنى البلدية. كان وحده، لا صحيفة أمامه، ولا فنجان على الطاولة، ولا يبدو أنه ينتظر أحدًا.

لفت انتباه جيوان أنه الوحيد في المكان الذي لا يبتسم.

تردد جيوان لحظة.

ثم تقدم.

توقف إلى جانب الطاولة وقال بصوت خافت:

"هل تسمح لي؟"

رفع الرجل عينيه إليه.

ظل ينظر إليه لحظة قصيرة، ثم أومأ برأسه من غير أن ينطق.

جلس جيوان.

لم يتبادلا كلمة.

كان الصمت بينهما غريبًا؛ لم يكن صمت شخصين لا يعرف أحدهما الآخر، بل صمت رجلين ينتظر كل واحد منهما أن يبدأ الآخر باعتراف لا يعرف كيف يُقال.

خلف الزجاج، كانت الساحة تبدو أكثر اتساعًا في الليل. والكلب الأشقر هناك، ينتظر خروج جيوان من المقهى.

تنحنح جيوان بخفّة.

ثم قال:

"أنا غريب عن هذه المدينة".

لم يلتفت الرجل.

ظل ينظر إلى الخارج.

وقال بهدوء:

"أعرف".

ارتسمت على وجه جيوان ابتسامة قصيرة.

أسند مرفقيه إلى الطاولة، وضم أصابعه بعضها إلى بعض.

"وكيف عرفت؟"

زفر الرجل ببطء، ثم مسح بإبهامه طرف الطاولة كمن يزيل عنها غبارًا لا وجود له.

وقال:

"لأنك ما زلت تنظر في عيون الناس عندما تسألهم".

خفض جيوان عينيه من غير قصد.

استعاد بسرعة وجوه من التقاهم منذ دخوله المدينة، وأدرك أنه كان يفعل ذلك فعلاً.

ظل ساكتًا.

أما الرجل، فلم يضف شيئًا.

بعد لحظات، مر النادل إلى جوارهما، وضع فنجان قهوة أمام الرجل المسن، ثم همّ بالانصراف.

أوقفه الرجل بإشارة صغيرة من إصبعه.

"من فضلك"...

انتظر النادل.

..."السكر".

ابتسم النادل باعتذار، ووضع وعاء السكر أمامه.

أخذ الرجل مكعبًا واحدًا، قلبه بين أصابعه لحظة، ثم أعاده إلى مكانه من غير أن يستخدمه.

انتظر حتى ابتعد النادل.

ثم عاد الصمت.

أراد جيوان أن يسأل عن أشياء كثيرة، لكن بمجرد أن نظر الى الرجل، اكتفى بسؤال واحد:

"أريد أن أسألك شيئًا".

حرك الرجل الفنجان قليلاً، حتى استقرت الملعقة داخل الصحن.

"اسأل".

مال جيوان نحوه من غير أن يشعر وخفض صوته.

"ما الذي حدث لهذه المدينة؟"

رفع الرجل الفنجان إلى شفتيه.

لكنه لم يشرب.

ظل ينظر إلى سطح القهوة لحظة، كأن الجواب مختبئ هناك.

ثم قال:

"وأنت"...

رفع عينيه إليه.

..."ماذا رأيت؟"

تنفس جيوان ببطء.

"رأيت أشياء لا أجد لها تفسيرًا".

توقف قليلاً.

ثم تابع:

"الناس ينسون ما لا يمكن نسيانه... ويخطئون في أبسط الأشياء... ويتصرفون وكأن ذلك طبيعي".

أطرق الرجل برأسه.

ثم سأل بهدوء:

"وهل رأيت شرًا؟"

تردد جيوان.

فكر.

ثم هز رأسه.

"لا".

"هل رأيت كراهية؟"

..."لا".

"هل رأيت ظلمًا؟"

أعاد التفكير.

ثم قال:

"لا".

عندها فقط رفع الرجل الفنجان.

ارتشف رشفة صغيرة.

وقال وهو يعيد الفنجان إلى الصحن:

"إذن... رأيت ما يكفي".

ظل جيوان يحدق فيه.

ثم قال:

"لكنهم يعرفون ما يحدث لهم... أليس كذلك؟"

رفع الرجل نظره إليه.

هز رأسه ببطء.

"لا".

قطب جيوان حاجبيه.

"إذن... هم لا يعرفون؟"

ظل الرجل ينظر إليه.

طال الصمت حتى بدأ صوت الأسطوانة القديمة يملأ الفراغ بينهما، ثم قال أخيرًا:

"النسيان"...

توقف.

وأدار الفنجان قليلاً فوق الصحن وتابع:

..."ليس دائمًا فقدانًا للذاكرة".

سكت.

انتظر جيوان.

لكنه لم يزد حرفًا.

مرر جيوان يده على جبينه، ثم قال:

"والتمثال؟"

رفع الرجل رأسه.

"ماذا عنه؟"

"لمن هو؟"

نظر الرجل عبر النافذة.

ظل يتأمل الوجه الحجري البعيد.

ثم قال:

"كان له اسم".

"وأين ذهب؟"

ابتسم.

كانت ابتسامة صغيرة، متعبة، لا تكاد تبلغ عينيه.

وقال:

"ذهب"...

توقف لحظة ثم أكمل كلامه:

..."مع الذين كانوا يذكرونه".

لم يشعر جيوان إلا وقد حبس أنفاسه.

كانت الجملة بسيطة.

لكنها تركت في داخله فراغًا لا يعرف كيف يملأه.

أراد أن يسأل شيئًا آخر.

رأى الرجل يخرج من جيبه ساعة جيب قديمة، الصدأ أكل حوافها.

فتح غطاءها بإبهامه.

تأمل العقارب.

بقي ينظر إليها طويلاً.

ثم أغلقها بهدوء، وأعادها إلى جيبه.

قال جيوان:

"منذ متى والمدينة هكذا؟"

لم يحتج الرجل إلى التفكير.

أجاب مباشرة:

"لم أعد أذكر".

ثم بقي صامتًا.

كأنه انتهى.

لكن بعد لحظات، قال بصوت بالكاد تجاوزه:

"أو"...

بلل شفتيه بطرف لسانه.

..."ربما لم يعد يجوز أن أتذكر".

لم يعرف جيوان لماذا شعر بقشعريرة تسري في ذراعيه.

كان يريد أن يسأل عن معنى الجملة.

لكن الكلمات بقيت عالقة في حلقه.

أما الرجل، فظل يحدق في الساحة.

وفي النهاية قال، كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطبه:

"الغباء هنا... لم يكن مرضًا يا سيّد، كان درعًا".

حرك رأسه نافيًا كأن الفكرة نفسها تؤلمه وتابع:

..."ونسينا كيف نخلعه".

أعاد نظره إلى التمثال.

وقال بصوت خافت، كأن الجملة الأخيرة لا ينبغي أن يسمعها أحد:

"لا تُرهق نفسك بمحاولة فهم ما عشته هنا".

توقف.

ثم أردف:

"فهذه المدينة ليست لغزًا"...

وبعد صمت قصير قال الكلمة التي بقيت معلقة في الهواء بينهما:

..."إنها **كواليا**".

أسند كفيه إلى حافة الطاولة، ونهض ببطء. بدا وكأن ظهره ازداد انحناءً منذ جلس، أو لعل الجملة الأخيرة كانت أثقل مما يستطيع حمله.

التقط عصاه.

عدل ياقة معطفه بحركة آلية.

ثم مضى نحو الباب.

لم يلتفت.

ولم يودع أحدًا.

نهض هو الآخر.

خرج إلى الليل.

وقف أمام قاعدة التمثال، وعاد ونظر إلى اللوحة الحجرية المثبتة عليها. كانت اللوحة متآكلة بفعل الزمن، لكن بقايا الكلمات ما زالت تقاوم.

اقترب أكثر، وقرأ بصوت خافت:

"لبيك يا حاكم المدينة".

ثم التاريخ الذي يعود إلى خمسين عامًا.

ما زال لم يفهم شيئًا.

لكنه شعر هذه المرة أنه لم يعد بحاجة إلى أن يفهم.

كل ما رآه منذ دخوله المدينة أخذ ينتظم في رأسه من تلقاء نفسه. السجلات الفارغة. الوجوه المبتسمة. الأخطاء التي تُترك كما هي. الخوف من تسمية الأشياء. المرأة التي لا تعرف اسم الحاكم، والرجل الذي قال له إن بعض الكلمات ما زالت تتذكر أصحابها.

استدار ومشى بسرعة، والكلب الأشقر خلفه.

لم يعد إلى الساحة.

ولم يبحث عن ذاك الرجل المسن.

وحين وصل إلى النزل، أغلق الباب خلفه بالمفتاح، وأخذ يجمع أغراضه على عجل. فتح الحقيبة، ووضع فيها ثيابه كيفما جاءت. وما إن همّ بإغلاقها حتى لمح قميصه مطويًا بالمقلوب.

مد يده ليعدله.

ثم توقف.

ظل ينظر إليه ثوانٍ طويلة.

سمع نفسه يقول:

"لا بأس"...

ارتجفت يده.

انتزع القميص من الحقيبة، وأعاد طيه ببطء، كأنما كان يصحح شيئًا أكبر من قطعة قماش.

في تلك اللحظة فقط...

أدرك أنه لو بقي في هذه المدينة وقتًا أطول، فلن يخشى أن ينسى أمرًا كاسم الحاكم.

بل سيخشى ألا يلاحظ أنه نسيه.

بعد الشطب

"The moment you refuse the lie, they call you a foreign agent."

حين خرج جيوان من النزل للمرّة الأخيرة، لم يلتفت خلفه. كانت حقيبته أخف مما دخل بها، مع أنها لم تفقد شيئًا تقريبًا؛ غير أن الأشياء، أحيانًا، لا يخفّ وزنها إلا حين تتوقف عن حمل معناها. إلى جانبه كان الكلب الأشقر يسير بخطوات

هادئة، يتقدمه أحيانًا ثم يبطئ حتى يعود إليه، ويلتفت بين حين وآخر بعينين يقظتين، كأنهما تسألانه إن كان ما يزال يعرف الطريق.

كانت المدينة تستيقظ ببطء. انفتح باب متجر، وارتفع دخان رقيق من فرن قريب، ومرّ طفل يحمل على ظهره حقيبته المدرسية. ثم انحرف، من غير أن ينتبه، عند إقترابه من الساحة، كما ينحرف الجميع. لم يرفع رأسه الى التمثال. ولم يرفع التمثال إصبعه أكثر مما كان مرفوعًا منذ عقود.

سار جيوان مستقيمًا، غير عابئ بذلك الانحراف الصغير الذي اعتاده أهل المدينة حتى صار جزءًا من مشيتهم. كانت كلمات سلمى تعود إليه بين حين وآخر، لا بصوتها، بل بذلك اليقين الذي كانت تنطق به، حتى بدت له الآن أوضح مما كانت يوم سمعها أول مرة. ابتسم من غير أن يشعر، ثم أطلق زفرة طويلة، كمن يغادر بيتًا طال بقاؤه فيه، حتى اختلط عليه الفرق بين الألفة والاعتياد.

عند البوابة، كان الكرسي العتيق ما يزال فارغًا، وقد استقر فوقه غبار خفيف لم يكن موجودًا يوم وصل. أما الدفتر، فظل مفتوحًا على الصفحة نفسها، والقلم مربوطًا بخيطه، يتأرجح قليلاً كلما مرّت نسمة. اقترب، ووضع حقيبته إلى جانبه، ثم أخرج منها حلقة المفاتيح النحاسية. بقي يقلبها بين أصابعه لحظة، وكانت الأسنان المعدنية الصغيرة تصطدم ببعضها، فتطلق رنينًا خافتًا أعاده، دفعة واحدة، إلى باب الغرفة، وإلى المرأة العجوز وهي تقول له بهدوء: "جرّبها".

مرر إبهامه فوق أحد المفاتيح، ثم تنهد ابتسامة قصيرة لم تكتمل. لم تعد تبدو له مفاتيح لغرفة، بل خيارات متعددة للوصول إلى الخطأ ذاته. وضعها فوق الدفتر برفق، ثم جذب القلم نحوه. احتاج إلى لحظات حتى عثر على اسمه بين الأسماء الكثيرة، وحين وجده، ظل يحدق فيه طويلاً. لم يكن

الخط الذي كتبه يومها مترددًا كما بدا له الآن، بل كان واثقًا، كخط رجل يظن أنه يدخل مدينة عابرة. رفع القلم، ووضع سنّه على أول حرف، ثم شطب الاسم بخط واحد، مستقيم وثقيل، حتى انحنى رأس القلم قليلاً من شدة الضغط.

بقي يحدق في الحبر الأسود لحظة، وشعر براحة صغيرة، بالكاد تُرى، تشبه الراحة التي يشعر بها المرء بعد أن ينطق أخيرًا بجملة ظل يؤجلها طويلاً.

ولم تدم تلك الراحة.

فقد وقع ظل طويل فوق الصفحة.

رفع بصره ببطء.

كان أربعة رجال يقفون أمامه، بملابس داكنة متشابهة، حتى بدا أنهم خرجوا جميعًا من الشخص نفسه. لم يكن في وجوههم غضب ولا قسوة، بل ذلك الفراغ البارد الذي يجعل الملامح تبدو وكأنها لم تتعلم التعبير قط. تقدم أحدهم خطوة، وأخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية. فتحها، وسوّى أطرافها بإصبعيه، ثم بدأ يقرأ بصوت رتيب، كموظف ينهي إجراءً إداريًا اعتاده منذ سنوات.

لم يكن جيوان يصغي إلى الجمل بقدر ما كان يراقب شفتي الرجل. كانتا تتحركان بثبات غريب، لا تتعجلان كلمة ولا تترددان عند أخرى. التقطت أذنه كلمات متباعدة؛ العمالة لجهات خارجية... تحريض المواطنين على التفكير... غسل الأدمغة بالمنطق... سبّ الحاكم ... ثم طُويت الورقة من جديد، كأن القراءة لم تكن سوى إجراء روتيني يسبق تنفيذ قرار اتُّخذ منذ زمن.

اقترب الرجل الثاني. أمسك معصم جيوان برفق أربكه أكثر من العنف، ثم أطبق السوار المعدني حوله. انكمشت أصابع جيوان غريزيًا لحظة انغلاق الحديد، وشعر ببرودته تنفذ إلى جلده، قبل أن تتحول، بعد ثوانٍ، إلى حرارة ثقيلة، كأن الأصفاد احتفظت بحرارة معاصم رجال آخرين سبقوه إليها. حاول أن يحرك يديه قليلاً، فصدر عن السلسلة رنين معدني قصير، التفت إليه الكلب على أثره، ووقف متصلبًا، وقد ارتفعت أذناه إلى أعلى.

في تلك اللحظة فقط، التقت عينا جيوان بعيني قائدهم. لم يجد فيهما انتصارًا، ولا شماتة، ولا حتى كراهية. وجد شيئًا أشد قسوة؛ موظفًا يؤدي عمله بإتقان، من غير أن يسأل نفسه، ولو مرة واحدة، لماذا.

خفض جيوان رأسه قليلاً. مرّت كلمات سلمى في ذهنه مرة أخرى، أكثر هدوءًا من المرة الأولى، حتى خُيّل إليه أنها تقف إلى جواره : " لا تخف من الحقيقة... خف من اليوم الذي تحتاج فيه إلى الكذب كي تحمي راحتك".

ارتخت كتفاه، واستقام ظهره، ومشى.

لم يدفعه أحد.

كان الرجال يسيرون حوله فقط.

وحين تجاوزوا البوابة، توقف الكلب لحظة، نظر إلى جيوان، ثم اندفع خلفهم بضع خطوات قبل أن يقف فجأة، كأن شيئًا غير مرئي منعه من التقدم أكثر. أطلق نباحة قصيرة، لم يلتفت إليها أحد. ثم نباحة ثانية، أطول منها. ومع كل نباح، كان المارة يواصلون طريقهم بالإيقاع نفسه، لا يسرعون، ولا يبطئون، ولا يرفع أحد رأسه ليرى ما الذي يحدث.

اقتيد جيوان داخل المدينة من جديد، حتى ابتلعته الأزقة الحجرية، واختفى آخر ما بقي منه خلف زاوية ضيقة؛ اعتقل بتهمة سيريالية، فقط لأنه تخيّل لوناً خارجَ الكتالوج المعتمد للمدينة.

ظلّ الكلب واقفًا في بقعته لبرهة، يحدق في الفراغ السديمي الذي ابتلع الرجل، ثم استدار ببطء وعاد وحده يجر خطاه نحو الساحة. سار بوحيٍ غريزي حتى بلغ قاعدة التمثال الشاهق، وتوقف تمامًا تحت الإصبع الحجري المرفوع بالوعيد.

رفع رأسه يتأمل الصنم البارد لثوانٍ، ثم انحنى عند قاعدته برأسٍ مرفوع، مفرغاً فضلته في استهانة فطرية جرّدت النصب الحجري من جلاله المهيب. استوى قائماً بعدها، وأطلق نبحةً عميقة صلبة، ارتدت بين الجدران القديمة الصامتة، قبل أن تذوب، كما تلاشت من قبلها أصوات العابرين ، في سكينة المدينة المطبقة.

وفي تلك الأثناء، على الطرف الآخر من العالم الخاضع، كان قطار الصباح قد نفث زفيره الأخير وتوقف عند رصيف المحطة البعيدة.

نزل منه رجل يحمل حقيبة سفر جلدية صغيرة. وقف أمام اليافطة المتآكلة يتلمس الحروف، ثم تابع سيره بخطوات مطمئنة متزنة حتى بلغ البوابة؛ وهناك، وجد الكرسي، والدفتر المفتوح، والقلم، يستقرون في مواضعهم الصامتة وينتظرونه بلهفة باردة، كما لو أنهم لم ينتظروا طوال هذا الدهر أحداً سواه.

دنا الزائر الجديد من الطاولة، أمسك بالقلم، وانحنى فوق بياض الصفحة يخط اسمه بيدٍ ثابتة لا تهتز، ثم خطى إلى داخل المدينة...

بينما كان الكلب، ذلك الحيوان الذي لا يخشى السجلات والدفاتر والمفاتيح النحاسية ولا يستوعب الأيديولوجيا، لا يزال واقفاً بصلابة في الساحة البعيدة التي نأت عنها خطاه، تحت ظل التمثال، يشرئبّ بعنقه نحو السماء ويواصل النباح.

هذا ما حدث

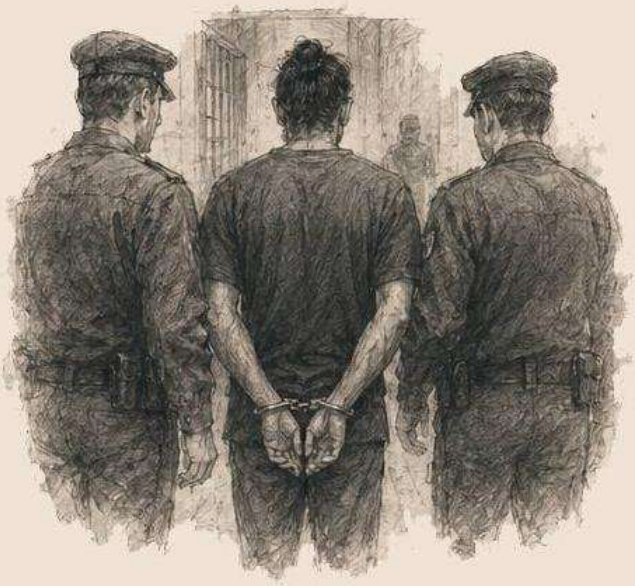

"إذا فرغت من هذا الكتاب ...

وشعرت أن شيئاً في وعيك لم يتغيّر،

فعد إلى أوله؛

لعلك لم تدخل المدينة بعد".

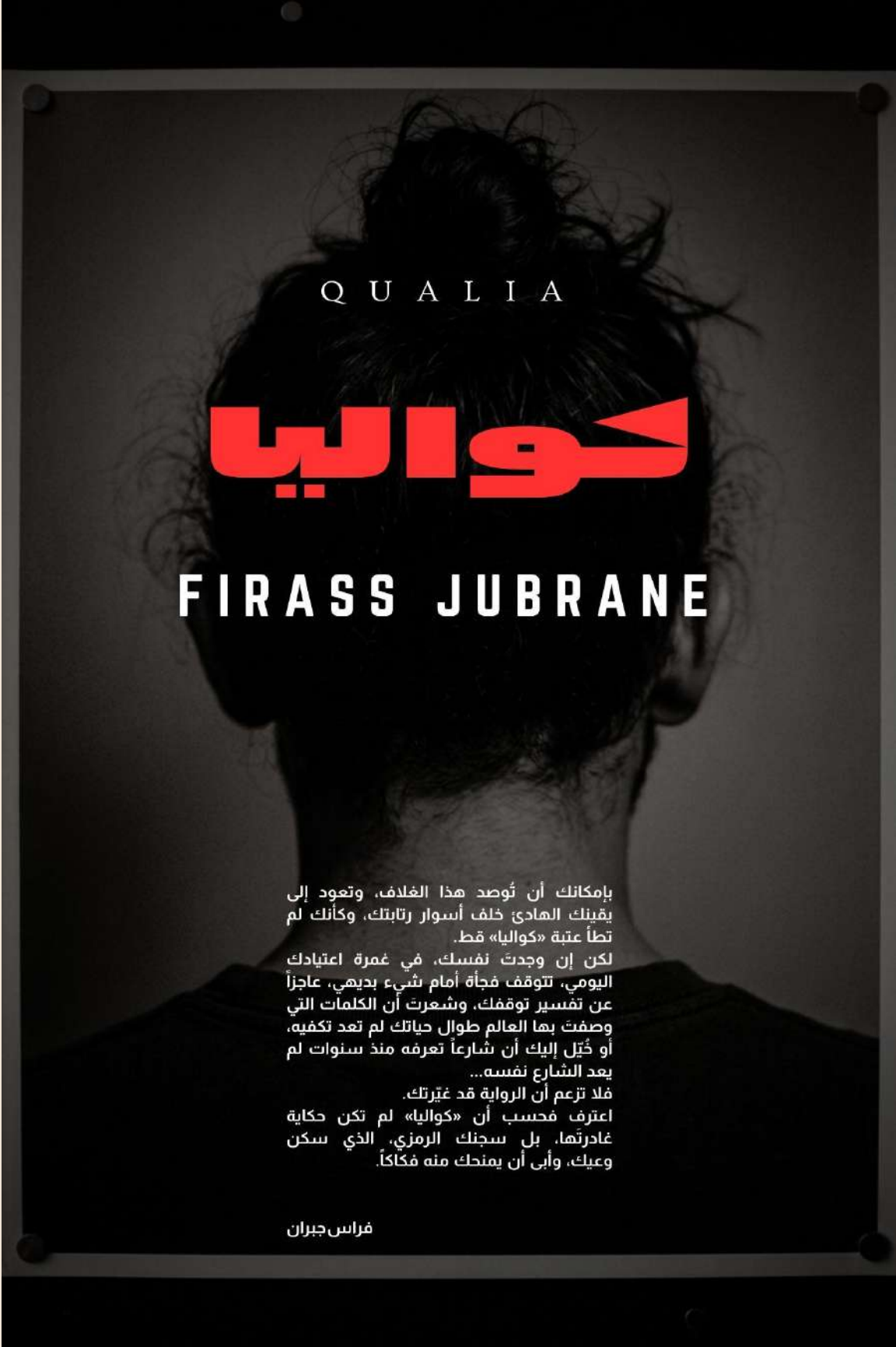

بإمكانك أن تُوصد هذا الغلاف، وتعود إلى يقينك الهادئ خلف أسوار رتابتك، وكأنك لم تطأ عتبة «كواليا» قط.

لكن إن وجدتَ نفسك، في غمرة اعتيادك اليومي، تتوقف فجأة أمام شيء بديهي، عاجزاً عن تفسير توقفك، وشعرتَ أن الكلمات التي وصفتَ بها العالم طوال حياتك لم تعد تكفيه، أو خُيّل إليك أن شارعاً تعرفه منذ سنوات لم يعد الشارع نفسه...

فلا تزعم أن الرواية قد غيّرتك.

اعترف فحسب أن «كواليا» لم تكن حكاية غادرتَها، بل سجنك الرمزي، الذي سكن وعيك، وأبى أن يمنحك منه فكاكاً.

فراس جبران